

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الخاصة

مكتبة
الأسرة
1999

اعترافات زوج

على سالم





المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه... هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
.. للشاب.. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة ما
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر
والحضارة المتجددة.

سوزان مبد

مكتبة
طريق العلم



١٢٥ قرشاً

١٩٩٦
مهرجان القاهرة للكتاب

مكتبة الأسرة

اعترافات زوج

اعترافات زوج

على سالم



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

اعترافات زوج

على سالم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا
صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

□ فى رحلة الحياة الطويلة القصيرة، قابلت أزواجا
سعداء وآخرين تعساء. وتكلم كل واحد منهم معي بصدق،
وكانه جالس علي كرسي الاعتراف.

وأعترف أنني لم أهتم كثيرا بالأزواج السعداء، فقد كان
اهتمامي منصبا علي هؤلاء الذين يعانون من حالة الجفاف
العاطفي والحياتي بهدف الوصول إلي تصور واضح عما
يمكن تسميته بالسعادة الزوجية.

إن التعرف علي مصادر الألم قد يساعدنا علي تجنبه أو
علي الأقل تخفيفه، والظلام الحالك قد يجعلنا أكثر استمناعا
بضوء النهار.

كما أن اكتشاف مصادر التعاسة عند الآخرين قد يجعلنا
أكثر حرصا علي إسعاد هؤلاء الذين اختارهم القدر أو
اخترناهم نحن لمعاشرتنا.

وإذا تمكنت صفحات هذا الكتاب من إشاعة الحب والرفقة
والتهذيب والفهم المشترك في بيت واحد في المنطقة العربية
كلها. فسوف أشعر بالتأكيد أنني قد أنجزت أمرا هاما.

على سالم

زوجتى والبطاطس

انتهت التمثيلية التليفزيونية، وعلى الفور ظهرت حسناء باهرة الجمال تقدم إعلانا عن البطاطس المقلية المعبأة فى أكياس البلاستيك الأنيقة. عند ذلك صاح صاحبي فى رعب صيحة اهتزت لها جدران البيت وانخلعت لها قلوب الجالسين ثم خر مغشيا عليه.

فشلت جهودنا فى إفاقته فنقلناه على الفور لمستشفى قريب، وهناك أحاط به فريق من أمهر الأطباء المعالجين تمكنوا بعد جهود جبارة من إفاقته وانعاشه بعد أن كان قد أوشك على الموت.

وبدا صاحبنا يتحدث فى ضعف شديد:

فى العام الماضى ظهرت فى الأسواق «حلة» من نوع جديد. تقلى كل شئ فى سرعة وإتقان وبها «فلتر» ينقى أبخرة الزيت المقلى. هذا ما كانت تقوله حملة الاعلان القوية التى ظهرت فى التليفزيون

والجرائد والمجلات وملصقات الشوارع. ألحت زوجتى فى شراء هذه
«الحلة» لأن الأولاد يحبون البطاطس المقلية ويلتهمونها بكميات كبيرة.
كما أنها «الحلة» ستوفر لها وقتا طويلا تضيعة فى المطبخ. وبذلك تجد
وقتا أوفر تصرفه فى العناية بى. استسلمت فى النهاية واشترت «الحلة».
كانت «حلة» غريبة بالفعل، مرصعة بالأجهزة الصغيرة المعقدة
والأزرار والمفاتيح والمؤشرات والعلامات الحمراء والصفراء والخضراء
والزرقاء. كأنها قمرة فى سفينة فضاء صغيرة. هذا بالإضافة لكتيب
صغير باللغة الألمانية يحوى رسومات تفصيلية تشرح الطريقة المثلى
لإستخدامات «الحلة» وتشغيلها، كما يحذر من طريقة التشغيل الخاطئة.
سعدت زوجتى «بالحلة» وفرحت فرحا كبيرا وامتلأ البيت بالبهجة
والحبور إلى الدرجة التى فكرت فيها أن احتفل بمثل هذا اليوم فى العام
القادم واسميه عيد «الحلة». بل - وأصارحكم القول - لقد فكرت فى
لحظة أن أرسل اقتراحا بذلك لعم مصطفى أمين لتعميم هذا العيد من
أجل بعث البهجة والفرحة والحبور والبطاطس المقلية الوفيرة، فى كل
بيت مصرى.

غير أن فرحتنا جميعا تحولت لنكد وغم ثقيل عند تجربة «الحلة» فى
المرّة الأولى، فى الافتتاح أو «البريمير» بلغة أهل المسرح.
هناك خطأ فى «تكنولوجيا» الحلة، يجعلها تطفى البطاطس فى وقت
أطول من المقلاة العادية. ويبدو أيضا أن «الفائر» كان يعمل بطريقة

عكسية، إذ امتلأ المطبخ بأبخرة الزيت المقلّى الذى مالبت أن تحول لسحاب كثيف خانق ملأ الشقة كلها ثم تسرب للعمارة مما دفع بعض السكان إلى المجئ للاستفسار عما حدث، ووجدنا أنفسنا بالطبع مطالبين بشرح القصة كلها لهم (كنا نشرح الحكاية من جديد كلما جاء أحدهم) واتضح أن كلا منهم خبير «حلى»، لذلك انهمرت علينا النصائح والارشادات المتضاربة.

استعنت بصديق يجيد اللغة الألمانية، وبعد أن رجع لقواميسه ومراجعته، أخبرنا بالنبا المفزع «الفلتر» عمل بطريقة عكسية لأن مؤشر التنقية لا بد أن يصل للعلامة الخضراء، أما مؤشر القلى فيجب أن يصل للعلامة الزرقاء، وقبل إلقاء البطاطس فى الزيت. ويجب الحرص على انتشال البطاطس قبل وصول المؤشر للعلامة الحمراء بعلمتين، وكل ذلك لن يحدث إلا باستخدام شعلة بوتاجاز قوية لا تتوافر فى البوتاجاز القديم الموجود لدينا.

باختصار، اشتريت بوتاجازا جديدا، كبيرا وقويا، من النوع الذى تستخدمه المطاعم. على أن سوء الحظ لازمنا، فلم يدخل البوتاجاز الجديد من باب المطبخ الضيق بالرغم من كل الجهود المبذولة منا ومن الجيران.

فى النهاية وضعناه فى ركن من غرفة الصالون وبدأت الخطة الخمسية الأولى للقلى. أصبحنا نأكل كل شىء مقليا. البطاطس والسمك

واللحم والأرز والعدس والفول، كل شيء فى حياتى أصبح مقلّيا. بدأت تهاجمنى كوابيس أرى فيها كل شيء مقلّيا، الشوارع والبيوت والأتوبيسات والجبال والروابى والوديان والحقول والأنهار والمحيطات. إن منظر البوتاجاز وفوقه تلك الحلة اللعينة وهو راibus فى ركن الصالون كان يقترب بى من الجنون شيئا فشيئا. لابد من إدخاله إلى المطبخ مهما كان الثمن.

بعد عمليات بحث مضمّنة تدخل فيها وزير الأشغال شخصا، رضى أحد المقاولين أن يتولى عملية توسيع باب المطبخ بعد أن طلب مبلغا من المال كان يكفى منذ عدة سنوات لبناء «فيلا» جديدة.

أخيرا حدثت المعجزة واستقر البوتاجاز داخل المطبخ. غير أن زوجتى طلبت من المقاول أن يتحرك باب المطبخ متسعا كما هو لكى نتمكن فيما بعد من إدخال الثلاجة الحديثة الكبيرة التى بدأت تظهر الاعلانات عنها فى السوق والتى تنوى شراءها قريبا، بمعنى أصح، التى تنوى إكراهى على شرائها قريبا. إنها ثلاجة ذات ميزة فريدة مذهشة، إذ توجد بها خانة توضع بها الأشياء المقلية وتحفظ بها دافئة بينما كل شيء بارد حولها. فضلا عن أنها تعمل بالكمبيوتر. هذا ما كانت تقوله حملة الاعلانات القوية المكثفة.

وجاءت الثلاجة، فأتضح أن المطبخ لا يتسع لها والبوتاجاز معا. فخرج البوتاجاز اللعين وفوقه الحلة الجهنمية مرة أخرى إلى غرفة الصالون.

أخذت أتردد على أطباء الأعصاب والعلاج النفسى، فقد بدأت تتنابى حالات رعشة شديدة لمجرد سماع كلمة بطاطس. أما رؤيته، فقد كانت تصيبنى بحالة إغماء وهبوط شديد فى القلب وبقية وظائف الجسم الحيوية.

كان صاحبى يتكلم بينما أنا أفكر فى كلمات قرأتها للأديب الايطالى البرتومورافيا، (أن الغرب يدفع الناس لحالة من جنون الاستهلاك عن طريق حملات الدعاية والاعلان. فالمصانع مثلا تخرج حذاء جديدا يصدر موسيقى ناعمة عندما ترتديه. ثم يلح عليك بالإعلانات إلى أن تشعر بالتعاسة الشديدة لأنك لا تمتلك هذا الحذاء وبطريقة أو بأخرى تحصل على المال اللازم لشرائه. عند ذلك يقوم بتقديم سلعة أخرى تعقبها هجمة إعلان شرسة أخرى.. وهكذا).

استرد ساحبى أنفاسه، استجمع قواه، وعاد للكلام فى ضعف:
حدثت الكارثة عندما دخلت على زوجتى ذات مساء فوجدتها تمسك بمجلة وتقول لى بفرحة:

تصور.. لقد شاهدت إعلانا جذابا عن رحلة جديدة.. تقلى البطاطس، وتسلقه أيضا.

بالضبط لست أذكر ما حدث بعد ذلك.. أو كيف حدث.. فتحت نوافذ الشقة وأخذت ألقى بكل أثاث المنزل إلى الشارع، مبتدئا بالحلة طبعاً.

انتقلت زوجتى والأولاد إلى بيت أبيها . وانتقلت أنا إلى المستشفى بواسطة الجيران الطيبين . استغرق علاجى عاما كاملا حتى سمح لى الأطباء المعالجون بالخروج .. كنت أظن أننى قد شفيت تماما من عقدة البطاطس، غير أن الاعلان الأخير الذى شاهدته معكم أثبت أننى مازلت أعانى من نفس المرض .

تركته حزينا، وبعد يومين ذهبت لأعوده ، فوجدته ميتا . قالت لى للممرضة أنه قد مات منذ خمس دقائق فقط، بهبوط حاد مفاجىء فى القلب، لا يعرف له الأطباء سببا .

خرجت من المستشفى حزينا بعد أن عرفت السبب، كانت الممرضة تمسك بكيس صغير أنيق من البلاستيك الملون، ملئ برفائق البطاطس المقلية، كانت تقرقشها فى استمتاع .. المسكين لم يتحمل المشهد من إنسانة المفترض فيها أنها من ملائكة الرحمة .

رحمنا الله جميعا فى عصر الاستهلاك وأعاننا على مقاومة حملات الاعلانات الشرسة .

كذبة بيضاء

لم يحدث من قبل أن كذبت على زوجتى. ليس لأنى فى غاية الشجاعة أو فى منتهى الاستقامة والوضوح ولكن ويكل بساطة، لأن ظروفى لم تحتم على أو لم تدفعنى أن أكذب عليها أكاذيب بيضاء أو منقوشة أو كاريوهات أو من أى لون آخر. فهى تعرف إيرادى الشهرى بالضبط، وتعرف جيدا طبيعة عملى، والأماكن التى أتردد عليها والأصدقاء الذين أسهر معهم أحيانا إذا حدث أن سهرت خارج المنزل.

كنت أستمع لأصدقائى وهم يحكون - ضاحكين - الأكاذيب البيضاء التى يكذبونها على زوجاتهم، وكنت أضحك معهم شاعرا بالتفوق لأننى أفضل منهم، ولكن بمرور الوقت تحول هذا الشعور بالتفوق إلى شعور بالنقص، حياتى تخلو من الأكاذيب البيضاء. لابد أن يكون لى أنا أيضا أكاذيبى الخاصة البيضاء، على الأقل كذبة واحدة، أفك بها عقدتى، وأتخلص بها من شعورى بالنقص فى مواجهة

زملائى الكذابين البيض. وأخيرا جاءتنى الفرصة على طبق من الفضة.

ذات مساء. وأنا داخل مكتبى، حانت منى التفاتة إلى غرفة الانتظار فوجدت سيدة حساء ترتدى ثياب الحداد وتنظر أمامها ساهمة فى حزن. كانت نظرتى الخاطفة إليها كافية لى أتبين معالمها، تلك المعالم التى قمت بتلخيصها تلخيصا مخلا عندما استخدمت فى وصفها كلمة (حساء) فقط، الواقع أن المرء بحاجة لى يكون طه حسين أو نجيب محفوظ لى يجد لديه محصولا وافرا من الألفاظ يصف به هذه السيدة الجميلة، الأكثر من جميلة.

أخبرنى الساعى أنها تريد مقابلتى.

- مقابلتى أنا؟

- نعم، نقول إنها أرملة أحد أصدقائك.

دار عقلى بسرعة، أرملة صديق؟ .. لم يحدث أن أحدا من أصدقائى قد مات قريبا.. كما أننى أعرف كل زوجات أصدقائى الأحياء والأموات لأننا نتزاور عائليا.. قد يكون أحد معارفى.. على العموم، دعها تدخل.

الآن هى جالسة على الكنبه المواجهة لمكتبى.. تحولت نظراتى لطيور بيضاء رقيقة تحط فى رفق على تفاصيلها الرقيقة الساحرة.

هذا النوع من الأناث لا تراه إلا مرتديا ثياب الحداد. فمن المستحيل وأزواجهن على قيد الحياة، من المستحيل أن يسمح لأحد بأن يراهن.

تكلمت أخيرا فى ابتسامة عذبة يغلفها الحزن النبيل. وبصوت هو أقرب لتغريد البلابل وصليل الأجراس الفضية الصغيرة .. : أنا أرملة المرحوم عبد الله القللى الذى كان زميلك فى البعثة فى إنجلترا.

ياه .. إنجلترا..؟ البعثة؟ خمسة وعشرون عاما مرت على عودتى من البعثة .. القللى ؟ .. القللى ؟ .. فشلت فى تذكر شخص بهذا الأسم، كما تذكرت أن بعثتى كانت فى أمريكا وليس إنجلترا.. ولكن أى أهمية لذلك الآن؟ قلت لها بحماس: نعم .. نعم .. القللى .. القللى .. كيف أنساه؟ لم تكن نفترق أيام البعثة.. ولكنى .. لم أشاهده منذ سنوات طويلة .. كيف حاله أقصد ليرحمه الله .. كان ذوقه جميلا فى كل اختياراته .. ليرحمه الله .. تحت أمرك ياسيدتى.

سكنت للحظات، وبدأ عليها الحرج، فقلت لها مشجعا:

” أرجوك ياسيدتى.. لقد كان القللى من أعز أصدقائى، وفى لندن لم يَكُنْ يخفى عنى سرا.. أنا أيضا لم أكن أخفى عنه أى شىء من تفاصيل حياتى.. أرجوك.. حدثينى بصراحة..

قالت وعيناها مغرورتان بالآلىء، أقصد الدموع: كان مغامرا.. أضع كل ثروته ووثرتى فى البورصة وسوق الأوراق المالية.. ولم

يتحمل.. فمات.. ليس أمامى إلا أن أبيع الفيلا وأبحث عن سكن
مقارضع.. فهل أجد لديك مشتريا؟

- لا مشكلة فى ذلك ياسيدتى.. سوف أكلّم أصدقائى سماسرة
العقارات.. وسوف نجد مشتريا يدفع مبلغا طيبا.

قالت: هناك أمر آخر.. لدى معاطف فراء كثيرة وملابس.. كلها مشتراه
من بيوت الأزياء العالمية وبعضها مصمم خصيصا لى.. أريد أن..

عند ذلك فقدت تماسكها وأجهشت فى البكاء بحرقة.. انتقلت إليها
على الفور لأهدىء من روعها وأطيب خاطرها وأمسح دموعها.. كان
الله فى عونها.. من الواضح أنها كانت فى حاجة للنقود.

على الفور قلت لها: بنت حلال.. لى صديق يريد شراء معطف من
الفراء لزوجته.. فإذا كنت حقا تتوين التخلص منها، فيسعدنى أن يكون
لصديقى نصيب فى واحد منها.

فقالت: إذا تفضلت أرسل الساعى يحضر سائقى.. معى فى السيارة
ثلاثة معاطف.. اختر منها واحدا.

جاء السائق ومعه المعاطف الثلاثة، اخترت واحدا منها شاهق
البياض، قالت لى: ذوقك جميل.. هذا هو أفضلها، أشتراه لى زوجى فى
العام الماضى.. كان ثمنه خمسة وعشرين ألف دولار.. الآن ثمنه أكثر
من ذلك بكثير ومع ذلك أنا على استعداد لأن أبيع به خمسة آلاف دولار
فقط. صدقنى لقد ارتدبته مرة واحدة فى باريس.

على الفور كتبت لها شيكا بالمبلغ ثم انصرفت شاكرة بعد أن أعطتني رقم تليفونها لكي أكلّمها عندما أجد مشتريا للفيل.

بعد انصرافي من العمل مررت بأحد أصدقائي وهو متزوج من سيدة من أسرة ارسقراطية عريقة.. تفهم في أنواع الفراء كما أفهم أنا في أنواع السمك. شهقت زوجة صديقي إعجابا وهي تتأمل المعطف: هو الآن ثمنه لا يقل عن ستين ألف دولار.. انتظر قليلا.. سوف أضعه لك في علبة فاخرة.

أخيرا جاءت الفرصة لكي أكذب على زوجتي الكذبة البيضاء التي أحلم بها منذ وقت طويل، قلت لها إنني طلبت من أحد أصدقائي الذين يقيمون في باريس أن يرسل لي بهذا المعطف الغالي لكي أقدمه لها بمناسبة مرور عشرين عاما على زواجنا.

سعدت زوجتي بالفراء سعادة من الصعب وصفها. وأخذت تبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرسل على الأرض موجة من البرد عاتية قارصة مصحوبة بالزمهرير والجليد لكي تتمتع بأرثائه، وأخيرا استجابت السماء لدعواتها وجاءت الفرصة، موجة برد مصحوبة بالصقيع لم تشهدا البلاد منذ أكثر من مائتي عام كما قالت مصلحة الارصاد، عند ذلك قررنا - أو قررت هي - أن تزور عمتها.

بعد خروجنا من المنزل وقبل أن نركب السيارة، فوجئت بشخص يظهر أمامي فجأة، قال: هل أنت فلان؟

أجبته بالإيجاب فقال باقتضاب: تفضل معنا.. أنت والمدام.

وجدت نفسى أنا وزوجتى فى سيارة الشرطة البوكس، وقد شل عقلى عن التفكير تماما. أدخلونا على ضابط المباحث الذى رحب بنا ثم طلب لنا مشرويا ساخنا ثم سألنى فجأة: من أين أتيت بهذا المعطف؟

استجمعت كل قدرتى على الكذب وأجبته: من فرنسا.. من باريس.. عاصمة المعاطف.. أقصد عاصمة فرنسا.. أرسله لى صديق..

قال بهدوء: اسمع هل تفضل ذكر الحقيقة؟ أم تفضل أن أوجه لك تهمة السرقة.. أم لعلك تفضل تهمة إخفاء أشياء مسروقة؟

قال ذلك وأخرج لى صورة فوتوغرافية كارت بوستال.. كانت الصورة للسيدة الحسنة.. هل تعرف هذه السيدة الحسنة؟ لا فائدة من الإنكار، قلت باندفاع صادق: لقد شاهدها مرة واحدة فى حياتى.. قالت لى إنها أرملة أحد أصدقائى فى البعثة واسمه القالى.. كانت فى حاجة لنقود فاشتريت المعطف منها.

فى هذه اللحظة نظرت لى زوجتى نظرة مرعبة، فنظرت إلى الأرض على أمل أن تبتلعنى. ولكن لم يحدث وظللت واقفا فى خجل وذلة وانكسار أمام الضابط وزوجتى.

خلعت زوجتى المعطف فى هدوء وألقت به على أحد المقاعد. قال الضابط: هى ليست أرملة، هى متزوجة من عبده رامبولص المساكن الشهير.. واسمها سنية الشحات، واسم الشهرة سنية سوابق.. وهى تقود عصابة لسرقة الطبقة الارستقراطية. ثم تقوم بتصريف البضاعة بطرق

ذكىة مستغلة جمالها وقدرتها على التمثيل.. و.. طمع بعض السذج فيها.. هذا المعطف مسروق من أسرة «عنايت» المعروفة.. الأمر يعتبر منتهيا بالنسبة لسيادتك.. هل تسمح بكلمتين فى المحضر؟

خرجت أنا وزوجتى من القسم فى تلك الليلة المشؤومة، لم تكن هناك ناكسيات فى الشوارع، وبدأت السماء تمطر. كنت أرتجف من البرد والخلج، وكانت زوجتى ترتجف فى الغالب من البرد والغضب.. كانت درجة الحرارة مليوناً تحت الصفر.. واستطعنا الوصول إلى المنزل، أشعلت كل الدفايات وأدركت كل أجهزة التكييف بأقصى طاقتها، وبعد ساعتين قلت لها: أنا آسف.

ردت هامسة: لم يحدث ما يدعو للأسف.. أنها مجرد كذبة بيضاء كان القصد منها إسعادى.. ولكنى أريد أن أعرف منك شيئاً آخر.. ماذا كنت تريد من هذه السيدة؟

قالت ذلك وهى تمد يدها فى اتجاه (فازة) كبيرة، ماحدث بعد ذلك ليس من حق القراء أن يعرفوه. فلم أبح به لمخلوق. حتى طبيب الاسعاف الذى عالجنى فى نفس الليلة فشل فى أن يعرف منى مصدر كل تلك الاصابات فى وجهى وجسمى.

استعدت رجولتى

اقترب من الستين . وهى المحطة التى يقذفون البشر عندها من قطار العمل إلى الشارع . أقصد يحيلونهم إلى المعاش . أحمد الله أننى لا أعمل فى الحكومة . ومع ذلك استولى على إحساس غامض بأننى على وشك أن ألقى نفس المصير ، آسف ، فلم أحدثكم عن نفسى بعد .

أعمل محاميا فى عاصمة عربية كبيرة . مكتبى به مجموعة كبيرة من المحامين والمحاميات الشبان والشابات . يعملون ليل نهار تحت إشرافى وتوجيهاتى لمواجهة سيل القضايا الذى لا ينقطع . ومع سيل القضايا يأتى سيل الفلوس .

وأنا فى صحة جيدة والحمد لله . يظننى من يرانى فى نهاية الأربعينات . ومع ذلك بدأ يخامرنى الاحساس بأننى لست أكثر من (خزانة) آدمية ، هيكل آدمى يرتدى روب المحاماة الأسود ، يعمل ليل نهار للدفاع عن حقوق الآخرين ، بينما لاحق لى فى شئء سوى التعب

والاجهاد. حتى الفلوس لم أعد أشعر بطعم لها، أرقام تضاف إلى أرقام. أنجبت ولدين وبناتا واحدة، انتهوا جميعا من مرحلة التعليم شغلوا وظائف طيبة ثم تزوجوا جميعا، وأنا الآن أحيا أنا وزوجتى التى تقاربنى العمر. لن أكرر عليكم الأسطوانة المعروفة التى سمعتموها من قبل من كل الأزواج الذين قرروا فجأة الزواج من آخرى. لن أقول لكم زوجتى لا تفهمنى، أو أنها تضايقنى، أو أن الحياة معها لا تطاق، إلى آخر تلك الاتهامات أو الأعذار أو التعللات التى يسوقها الأزواج عندما يقررون الزواج للمرة الثانية .. لا .. فمازلت أتمتع بقدر من الأمانة العقلية يجعلنى أقرر أنها سيدة فاضلة ومهذبة بكل المقاييس.

ولكنى لم أعد أحبها .. بمعنى أصح لم أعد أشعر تجاهها بتلك الرغبة العارمة التى كنت أشعر بها منذ عشرين عاما أو حتى منذ عشرة أعوام .. هل تسمحون لى بأن أكون أكثر صراحة، أريد أن أتزوج من سوسن. نعم. لم يعد لى مطلب فى الحياة سوى أن أتزوجها، هذه هى قضيتى ببساطة. علما بأن فارق السن بيننا ليس كبيرا إلى الحد الذى يجعلنى أخجل من هذه الرغبة .. هى فى الخامسة والعشرين من عمرها، ولكنها ناضجة بحيث تظنها فى الثلاثين.

سوسن تعمل عندى محامية تحت التمرين. جميلة، بل طاغية الجمال. بمجرد أن تدخل حجرة مكتبى لتعرض على مذكرات القضايا تشتعل فى كل خلايا جسمى وعقلى نيران غير قابلة للانطفاء.

و ذات ليلة استجمعت شجاعتي واعترفت لها بحبي وتقدمت
لخطبتها . لست أعرف ليلة أخرى مرت على أو على أحد آخر بهذا
الجمال وذلك السحر . لقد اعترفت هي الأخرى بأنها تحبني ، وبأنها
كانت على وشك أن تصارحنى لو أنني أجلت اعترافى عدة دقائق .

لا تظنوا أنني رجل عاطفى ، على العكس من ذلك أنا واقعى جدا
وأعرف أن الزواج المبنى على العاطفة وحدها مصيره إلى الفشل . أما
الزواج المبنى على حسابات الواقع فهو وحده القادر على الصمود فى
مواجهة الزمن . كان لابد من تأمين مستقبلها فلا أحد يضمن أن يحيا
حتى اللحظة التالية . لذلك اتفقت مع أسرتها على ما يلى :

(أ) أن أشتري لها فيلا وسيارة بأسمها .

(ب) أن أؤمن على حياتى لمصلحتها بمبلغ كبير .

(جـ) أن أصنع فى البنك مبلغ مائة ألف دولار أمريكى ودبعة
بأسمها ، ليضمن لها دخلا شهريا محترما .

(د) أن أكتب لها مؤخر صداق قدره خمسون ألف دولار .

ولكن عندما طالبوا منى أن تكون العصمة فى يدها رفضت بإباء . بل
وصرخت فى وجوههم تعنفهم على هذا الطلب الغريب . وصاحت : أفهموا
جيذا أنه هو الرجل وأنا المرأة .. أنه رجلى وسيدى وأنا زوجته وجاريته .

عند ذلك شعرت بالفعل أنني شاب فى الثلاثين من عمره .. ولكن ..
ولكن آه من ولكن هذه .. لماذا اخترع البشر هذه الكلمة . ولكن فى ليلة

الزفاف حدث أمر غريب ومروع لست أملك له تفسيراً حتى الآن .
فشلت، نعم فشلت . بكل ماتحملة هذه الكلمة من معان مهينة ومذلة، أما
الأمر الذى سحقتنى تماماً فقد كان ما قالته لى سوسن، قالت باستنكار
وبصوت غاضب: لماذا تزوجتنى إذن...؟ ألقت بى جملتها فى قاع
الزمن .. أحسست أننى عجوز فى التسعين .

فى تلك الليلة اكتشفت فى زوجتى الأولى (صفة) لم أكن أظنها بهذا
القدر من الأهمية .. هذه الصفة هى، التهذيب .

فقد يحدث كثيراً للرجل، أن يفشل، بسبب التوتر، أو الأجهاد أو لأى
سبب من الأسباب .

حدث لى ذلك مرات عديدة فى سنى زواجى الطويلة . ولكن زوجتى
كانت تحرص على أن يمر الأمر ببساطة وكأنها لم تفتن له، وكأن ما
حدث أمر طبيعى تماماً أو لا أهمية له .. وبذلك لم تكن تلك المسألة
تمس كبريائى كرجل، فالرجولة أمر أشمل بكثير، ولكن سوسن بجملتها
الصاعقة دمرتلى تماماً .

تكررت المحاولة، وتكرر الفشل . وفى كل مرة كنت أتقدم فى العمر
عشرة أعوام . عشت معها شهراً واحداً، ثلاثين يوماً وأنا أشعر أننى
شخص آخر . ضعيف، ذليل مهان، لا تجرؤ نظراتى على الالتقاء
بنظراتها .

وتم الطلاق. وحصلت سوسن على المائة والخمسين ألف دولار والفيلة والسيارة وأصبحت تواجه مشكلة جديدة، مشكلة اختيار عريس من بين مئات الشبان الذين تقدموا ويتقدمون لها كل يوم طالبين يدها أو طالبين ثروتها.

أما أنا فقد استعدت زوجتي.. ومن الغريب والمدهش معا أنني استعدت رجولي أيضا.

زوجتى محظوظة

بالرغم أن رسالتها للماجستير كانت فى علم الإدارة العامة إلا أنها وبكل المقاييس لم تكن من وجهة النظر الواقعية والعلمية تفهم فى الإدارة العامة أو الخاصة.

فما ندرسه فى الجامعات شىء وما نواجهه فى الحياة العملية شىء مختلف. ولو أننى طبقت فى عملى ما كانت تشير على به لأنتهى بى الأمر إلى الإفلاس الأكيد. ومع ذلك فقد شاء حظى النعس أن أترك لها مصنعى الصغير تحت رحمتها وتحت رحمة نظرياتها المتطورة فى علم الإدارة. أقول (نظرياتها) تأديبا، فلم تكن تحمل فى رأسها سوى ما يمكن تسميته بالخزعات الإدارية.

المصنع به أربع ماكينات كبيرة وعشرون عاملا وخمسة من الموظفين الإداريين. وهو مخصص لإنتاج نوع معين من الجوارب والملابس الداخلية القطنية. كنت أدير المصنع وحساباته وعمليات

تسويق الإنتاج بانضباط شديد محققاً قدراً معقولاً من الأرباح، ولكنى بالرغم من كل انضباطى وحزمى فى الإدارة فوجئت بالمصائب تنهال على واحدة تلو الأخرى. ففى أسبوع واحد توقفت ثلاث ماكينات ولم نجد قطع الغيار الخاصة بها فى السوق، وقيل لى إن المصانع لم تعد تنتج هذا النوع من الماكينات أو قطع الغيار الخاصة بها، وقامت مصلحة الضرائب بتوقيع الحجز على المصنع مطالبة إياى بمبالغ رهيبية نتيجة لتقديرات جزافية عن أرباح خرافية لا يمكن أن يحققها مصنع فى حجم مصنعى، بالإضافة لتقلبات فى أسعار السوق وظهور منافسين أقوياء، أغلقوا مناطق بأكملها فى وجهى.. أما الكارثة الحقيقية، فكانت.. السجن.. نعم.. السجن.

تم اقتيادى من مصنعى وفى يدى القيود الحقيقية إلى السجن. لأننى خالفت مادة لا أعرفها فى قانون الاستيراد والتصدير فى المرة الوحيدة التى قمت فيها بتصدير بعض إنتاج المصنع. وبسبب إهمال موظف صغير فى البنك، أتهمت بالتهريب، وإلى أن يثبت القضاء براءتى، وأن مبالغ العملة الصعبة المطلوب تحويلها قد حولت بالفعل فى الموعد القانونى، كان لابد أن أقضى فى السجن ستة شهور.. نعم، ستة شهور كاملة.

أخيراً جاءت الفرصة لزوجتى لتجرب خزعلاتها فى علم الإدارة الحديثة. كان من السهل بالطبع أن أتنبأ بما سيحدث لها وللمصنع.. إذا كنت أنا بكل خبرتى وانضباطى وفهمى انتهى بى الأمر إلى السجن،

فما بالك بما سيحدث لها بكل رومانسيتها وجهلها بالواقع الوحشي للحياة العملية.

أستر يا رب!

عندما كانت تزورنى لم أكن أحدثها عن المصنع فقد كنت أخشى أن تخبرنى بما يصيبنى بالسكتة القلبية، كنت مهتما بشيء واحد، التركيز على النضال لإثبات براءتى ثم للخروج من السجن لتصفية المصنع وإغلاقه للأبد.

فى لحظة خروجى من السجن كانت فى انتظارى . ذهبنا معا إلى المصنع وهناك كانت المفاجأة، كان المصنع يشغى بالحركة، والماكينات تدور بكامل طاقتها، فصلت خمسة عمال وقامت بتعيين عشرة، كما قامت بتعيين مهندسة صيانة شابة تولت عملية تصنيع كل قطع الغيار المطلوبة . كيف لم أتنبه لهذه الفكرة من قبل؟ بالفعل لابد من مهندس صيانة مقيم ودائم بدلا من الاستعانة بشركات الصيانة التى تقوم بعملها على طريقة تسديد الخانات. بالإضافة لذلك فقد استطاعت أن تحل مشكلة الضرائب وأن ترفع الحجز عن المصنع، ذهبت للمسئول وأغمرى عليها فى مكتبه وعندما أفاقنا انخرطت فى بكاء حاد يمزق نياط القلوب، ثم أثبتت للمسئول أن المصنع كان يحقق خسائر طوال العشرة أعوام الماضية . كما قامت بشراء ماكينة تقوم بطبع الصور الملونة على القماش وبذلك ظهرت فى الأسواق ،فانلة، جديدة عليها صورة لاعب

كرة مشهور فى صبيحة اليوم التالى لإحرازه خمسة أهداف فى مرمى نادى الخصم وانهالت عليها آلاف الطلبات فتمكنت بذلك من تسديد ثمن الماكينة فى شهر واحد. كما رفعت أجور ومرتبات العمال والموظفين وأضافت بندا جديدا هو بند الحوافز والمكافآت، فحولت العمال إلى عفاريت أمام الماكينات، لدرجة أن ترحيبهم بى وتهنئتهم لى بمناسبة الإفراج عنى، لم يستغرق دقيقة واحدة عادوا بعدها لعملهم. قد تقولون أن زوجتى تفهم أكثر منى فى علم الإدارة.. وأقول لكم، لا.. أنا أفوقها فهما ووعيا ومعرفة، ولكنها تستطيع أن تفعل أشياء لا يقدر عليها الرجال، هل أستطيع أنا - أو أقبل - أن أنهار باكيا فى مصلحة الضرائب؟ هل يطاوعنى قلبى على فصل خمسة عمال لمجرد أنهم مهملون؟ هل أغامر بشراء ماكينة جديدة دون أن أقوم بعمل دراسة جدوى دقيقة لاحتياجات السوق..؟ لست أنكر أنها نجحت فى قيادة العمل فى المصنع فى غيابى.. ولكنها هى نفسها اعترفت فى تلك الليلة، بأن الحظ.. والحظ وحده كان وراء ذلك النجاح.

سهرة على مشارف الغابة

أعمل - أو كنت أعمل - مديراً للمشروعات فى شركة عالمية، ثم كلفت بالإشراف على مشروع بناء محطة كهرباء فى دولة من دول إفريقيا الوسطى التى استقلت حديثاً. ولما كان من الصعب أن تصحبنى زوجتى إلى هناك نظراً لخشونة المعيشة وقسوتها، لذلك فقد قررت أن أسافر وحدى - بالرغم من معارضتها - إلى ذلك المكان الاستوائى متحملاً قسوة الوحدة وحياة العزوبية لمدة عامين مكثفياً بأن أرى زوجتى فى أجازاتى فقط، وكانت خمسة عشر يوماً كل ستة شهور تضيق منها ستة أيام فى الطيران جيدة وذهاباً.

سارت خطوات المشروع فى البداية فى طريقها الطبيعى طبقاً للجدول الزمنى الذى أشرفت على وضعه بنفسى إلى أن حدثت عقبات لم تكن فى الحسبان، ترتب عليها امتداد العمل فى المرحلة الأخيرة لعدة شهور ما لبثت أن أصبحت عاماً كاملاً دون أن يلوح فى الأفق ما يشير

إلى أننى سأتمكن بالفعل من إنهاء العمل فى تلك المحطة اللعينة، بل وبدأ
يدخلنى إحساس غامض ومر بأننى لن أرى زوجتى أو بلدى مرة أخرى.
أصبحت نكد المزاج، متوتراً دائماً، أثور لأقل خطأ يرتكبه أحد
العاملين معى، بالإضافة للأرق الدائم والكوابيس المزعجة التى
تهاجمنى بمجرد أن أغمض جفونى.

وذات ليلة يعد مشاكل عصبية مع بعض العناصر البيروقراطية التى
دأبت على تعطيلنا، دعانى أحد زملائى لقضاء سهرة خاصة صاخبة
أروح فيها عن نفسى وأهدى أعصابى الثائرة. كنت أعرف من قبل
ماذا يحدث فى مثل تلك السهرات التى تقام عادة وسط الغابات أو على
مشارفها وكنت حريصاً على الابتعاد عنها، مكتفياً بالسهر فى نادى
الشركة أو مع كتاب أو مع نفسى فى مسكنى بصحبة الفراغ والقلق.

لست أدرى أى شيطان هيا لى أن ألبى الدعوة، المهم أننى ذهبت فى
الموعد المحدد وهناك وجدت بعض الأوربيين من جنسيات مختلفة
وبعض السيدات الأفريقيات من هواة السهر والمرح. لم يعد أمراً هاماً أن
أصف لكم وقائع هذه السهرة فإن مجرد تذكر ما حدث فيها بين أشجار
الغابة الكثيفة وظلمتها فى جو صاخب وماجن ومنفقت، يشعرنى بأقصى
درجات التعاسة والألم.

النظام العلاجى فى الشركة يقضى بأن يتم الكشف علينا دورياً كل
شهر بواسطة طبيب مقيم، ولقد أحسست بارتياح كبير عندما كشف على

الطبيب بعد أيام من ذلك العمل وكنت سليماً تماماً من كل النواحي، حتى عينة الدم التي يحصل عليها منا بشكل دوري لتحليلها في معمله الصغير، كانت أيضاً سليمة.. الحمد لله.. سليمة.. على أن أحمد الله كثيراً ولا أعود لمثل هذه الحمافة. من يدرى ماذا يحدث لى فى المرة القادمة.

بعد مرور عشرين يوماً أرسل الطبيب يستدعيني، قال لى بهدوء: عندكم فى الشرق لا يصارحون المريض بحقيقة مرضه إذا كان خطيراً.. أما نحن فنرى العكس. فالأمانة العلمية تقتضى أن أصارحك.. يا صديقى أنت شخص متعلم وتعرف عن الحياة الكثير، إن عينة الدم التى حصلت عليها منك، لم تكن مطمئنة، لذلك أرسلتها إلى المعامل فى لندن.. وللأسف.

لم أستمع لبقية ما قاله الطبيب.. شعرت أننى أهوى فى ظلام كثيف، لقد أصبت بالإيدز فى تلك الليلة الملعونة، استمر الطبيب يتجذث عن الإيمان بالله وعن القضاء والقدر ولكننى لم أكن فى حالة تسمح لى أن أتبادل معه الحديث أو أن أستوعب ما يقول.

أرسلت لزوجتى قسيمة الطلاق موثقة من سفارتنا ومن وزارة الخارجية. أرسلت لها أيضاً توكيلاً معتمداً تتصرف بمقتضاه فى كل أملاكى وأموالى فى بلدى، مع الوثيقتين أرسلت لها أيضاً خطاباً من عدة سطور أبلغها فيه أننى تزوجت من أخرى ثم قدمت استقالتي من الشركة فقبلوها وصرفوا لى مكافأتى على الفور.. وأنا أعتقد أنها ستكفينى إلى أن أموت.

سیدی السفیر..

لدى من الهدوء والشجاعة ما يجعلنى أطلب منك أن تقوم بتصوير هذا الاعتراف وأن ترسل منه نسخاً لكل أفراد الجالية التابعة لك. أننى أشكرک يا سیدی بكل قوة. لكل المساعدات التى قدمتها لى السفارة وأطلب منك - واعتبر هذا الطلب وصية - أن أدفن هنا.. بعيداً عن بلدى، نعم من الأفضل أن أدفن فى المكان الذى شاهد حماقتى الأولى والأخيرة.. تحياتى ووداعاً.

(ملحوظة: سعادة السفیر ع.ص، أعطانى صورة من هذا الاعتراف للنشر. وأبلغنى أنه تم تنفيذ وصية ذلك الزوج المتعس الذى توفى بعد شهرين فقط من كتابة هذا الاعتراف.. ولقد قال لى سعادته وهو يتنسم فى رثاء.. فى الغالب لقد مات من الندم .. ع.س).

زوجتى ليست مسئولة

أعترف يا سيدى المحقق أنتى المسئول وحدى عما حدث. أنا الذى مددت يدي إلى أموال العملاء فى البنك وأخذتها، أو كما يقول قرار الاتهام سرقتها. لم تطلب منى زوجتى ذلك ولم تدفعنى إليه، وليست لديها أدنى فكرة عما فعلت. واعترافى هذا لم يجبرنى عليه أحد بتهديد أو وعيد أو ترغيب، فعندما استدعانى مدير البنك وسألنى عما فى دفاترى من أخطاء اعترفت على الفور بجريمتى، ليس لأن ضميرى قد استيقظ. فلم يكن ضميرى نائما طوال الوقت الذى كنت أسرق فيه البنك، وليس لأن ضميرى كان يعذبنى بقسوة، فلم أجرب هذا الاحساس من قبل. لقد اعترفت ببساطة لأننى كنت قد تعبت من السرقة، وبدأت أحس برغبة قوية فى العقاب. وكل ما سرقته يا سيدى المحقق قد طار فى الهواء. لن تجدوا فى بيتى فلساً واحداً. ولن تجدوا عقاراً ثابتاً أو منقولا باسمى أو بأسم زوجتى.

آين ذهبت كل هذه الاموال ؟

- صرفتها كلها فى العلاج يا سيدى، علاج زوجتى . فبعد شهر
العسل - الذى كان عملاً بحق - اصببت زوجتى بمرض يسمونه
الاكتئاب . وهو مرض فظيع يا سيدى، بل هو أفظع الأمراض التى
تصيب الزوجات، اصطحبتها لكل أطباء العلاج النفسى، انفقت عليها
كل ما كنت أملكه من مدخرات، ولكنها لم تتحسن بل ازدادت حالتها
سوءاً، وبالرغم من أن اكتئابها كان من النوع الهادى، غير الضار،
وغير الضار هنا بمعنى أنها لن تذبحنى وأنا نائم مثلاً، هذا ما أكده لى
الأطباء، وأكدوا لى أيضاً أنني سأحيا فى تعاسة دائمة فقط، كانت فائرة
غير متحمسة لشيء، تتحرك بهدوء وخفة كالشبح، نتحدث همساً. ليس
ذلك الهمس المحبب بل ذلك النوع من الصوت المبحوح، الذى إذا
سمعته كثيراً فقد يدفع بك إلى الجنون، فجأة بطريق الصدفة بعد عذاب
طويل اكتشفت علاجاً مدهشاً. أهديتها خاتماً صغيراً من الماس كنت قد
ورثته عن أمى، نظرت للخاتم بإعجاب ولمعت عيناها ببريق حى آخاذ،
وشيناً فشيناً دبت فيها لروح، اختفى الاكتئاب وحلت محله حالة من
البهجة الجميلة، لقد تحولت لشخصية أخرى، نشطة، تضحك، تغنى
تتغنى فى طهو الأطعمة التى أحبها، تحرص على مظهرها طوال اليوم،
باختصار يا سيدى عشت معها أسبوعاً فوق السحاب، أسبوعاً فى الجنة،
أما الأسبوع الذى يليه فقد فوجئت بنفسى وقد عدت لليران الجحيم، لقد
عادت إليها حالة الاكتئاب اللعينة فجأة وبلا أية مقدمات، لقد انتهى

مفعول الخاتم وعلى أن أجدد الدواء، وبآخر ما معى وكل ما استطعت الحصول عليه من أصدقائي، اشتريت لها جهاز فيديو وعدداً من الأفلام فاخنتى الاكتئاب على الفور وعدنا للحياة فوق السحاب، استمرت الحياة فى الجنة هذه المرة أسبوعين عدت بعدها للحياة فى الجحيم، بالتحديد فى الدرك الأسفل منه .

كانت تطلب من نوادى الفيديو أفلام الرعب فقط، وأفلام المآسى والكوارث المفجعة، كانت تمر على لحظات أشعر فيها أن شقتى أصبحت مأهولة بأبطال أفلام الرعب. استولى على شعور غامض بأنه فى أى لحظة سأفاجأ بدراكيولا فى الحمام، أو مصاص الدماء يتناول عشاءه فى المطبخ أو فرنكشتين شخصياً يجلس إلى مكتبى .

وبالرغم من كل ذلك كنت قادراً على التحمل، أما هى فقد تطور اكتئابها وبدأ يتحول للورع الخطر. عند ذلك نصحتنا الأطباء بضرورة تغيير الجو والسفر بعيداً.

اقترحت هى باريس عاصمة النور نمضى فيها عدة أيام ثم نمضى الصيف على شاطئ الريفييرا، فشلت فى اقتراض مصاريف الرحلة من أصدقائي، كما فشلت فى بيع قطعة الأرض التى أملكها، فسوق الأراضي فى ذلك الوقت كان قد أصابه الكساد .. لا .. لم أنحول للص فى هذه اللحظة، لقد قررت أن أقوم بعملية تغيير بسيطة فى بيان العملاء .. تلك التى تسمحونها تزويراً .. أتمكن بها من الحصول على ما

يكفى الرحلة وعندما أعود .. أبيع قطعة الأرض بعد أن يرتفع سعرها وعند ذلك أسدد المبالغ التى أخذتها من البنك أو - كما تقولون - سرقتها.

وفى باريس، يا سيدى المحقق، اتضح أنها ليست معجبة بها بوصفها عاصمة للنور والثقافة والفن، ولكن بوصفها عاصمة للملابس والأزياء أما شاطئ الريفييرا يا سيدى، فلم أره ولم أتمتع بأمواله. لم نخرج من الفندق. ولكنها بشكل عام كانت رحلة جميلة.

عندما عدنا وجدت مشتريا لقطعة الأرض بمبلغ كبير يغطى المبلغ الذى .. عفواً سرقته، ولكنى لم أعد له البنك فقد كنت فى حاجة لشراء سيارة جديدة بدلا من سيارتنا القديمة التى بعثها وسددت بها بعض الديون الصغيرة .. السيارة الجديدة يا سيدى؟ تهشمت فى حادث نتج عن سرحانى أثناء القيادة. عدت للسرقة بعد ذلك مرات ومرات، فقد كان الاكتساب اللعين يلتهم كثيراً من الفساتين والمعاطف والهدايا والرحلات.

أنا أعرف يا سيدى أنها رفعت دعوى فى المحكمة تطلب الطلاق، وعندها حق يا سيدى، بأى وجه ستقابل أهلها وصديقاتها وهى زوجة لمختلس .. لص ..

شباب فى الستين

أنتمى لأسرة معجزة، فجدى أنجب أبى بعد أن تعدى المائة من عمره، ومات فى سن المائة والعشرين حزناً على وفاة زوجته الرابعة التى كانت جميلة وتصغره بستين عاماً. وأبى مات بعد أن تجاوز الخامسة والتسعين من عمره بسبب حادث سيارة كان يقودها بنفسه وسط أوروبا فى رحلة طويلة من السويد إلى أسبانيا. ولذلك لا تتدهشوا عندما أقول لكم أننى تخطيت الستين بينما مظهرى لا يوحى بأننى قد تجاوزت الخامسة والثلاثين. فجسمى قوى. وأنا قادر على سحق ثلاثة من شباب هذه الأيام بضربة واحدة من قبضة يدى. وأجرى فى الصباح عشرة كيلومترات قبل الذهاب إلى مكتبى لكى أعمل عشر ساعات فى عمل ذهنى شاق.

كان لابد من هذه المقدمة لكى تصدقوا أن فارق السن بينى وبين ليلى ليس هاماً، ولن يكون لافتاً لنظر الآخرين، وهى على أى حال

ليست صغيرة فقد تعدت العشرين بقليل، ولقد تلقت ليلي تعليمها فى أمريكا، وقازت هناك بعدة بطولات فى سباحة المسافات الطويلة وهى فتاة تنفجر بالصحة والعافية. وأنا أحب هذا النوع القادر على إعطائى أطفالاً أقوياء أصحاء قادرين على مواجهة متاعب الحياة، سأتزوجها، لكى تعلم زوجتى التى تركتنى منذ شهرين وذهبت لبيت أهلها غاضبة، أننى لن أجلس فى انتظار عودتها تعساً وحزيناً، واضعاً خدى على كفى، بل سأتزوج أجمل وأصغر وأفضل منها.

ليلي لم تعترف لى بعد بأنها تحببى. ولكنها تنظر لى دائماً بإعزاز خاص. وأنا أعرف - بخبرتى - تلك النظرة جيداً، أنها تلك النظرة الودود المليئة بالإعجاب التى تعبر عما تحسه الأنثى من حب تجاه الرجل. الرجل. للرجل الحقيقى، الذى هو أنا، بكل مواصفائى.

وبما أن كبريائى كرجل ذى شخصية قوية تمنعنى من مفاتحتها، لذلك يجب أن أظل هادئاً فى انتظار أن تقاتحنى هى، وهذا ما حدث اليوم، لقد اتصلت بى فى الجريدة التى أعمل بها وقالت إنها تريد أن تتحدث معى فى أمر هام فأعطيتها موعداً بعد ثلاثة أيام متعللاً بكثرة مالى من أعمال.

سأقول لها: اسمعى يا ليلي. إننى أحترمك فقط وأشعر ناحيتك بارتياح وبود خاص. ولكنه لا يرقى لمرتبة الحب، ولكنى بالقطع سوف أحبك مع الأيام، أننى رجل عملى، متى أذهب لأهلك لخطبتك؟

مرت الأيام الثلاثة بطيئة، واستعددت للحظة الموعودة استعداداً خاصاً، أمهر المدلكين فى البلدة أجرى لى تدليكاً عفيفاً أجرى الدم حاراً فى كل عروقى وعضلاتى، أخذت حماماً ساخناً ثم حماماً بارداً، وكانت النتيجة أننى عندما نظرت فى المرأة قبل نهاى للموعد وجدتنى تقريباً - إذا حذفنا شعرى الأبيض - فى سن العشرين.

جاءت فى الموعد تماماً. كانت ترتدى ثياباً بسيطة أنيقة. لم تكن تضع مكياجاً أو مساحيق من أى نوع على وجهها. يبدو أنها - الحق معها - اكتفت بالسحر الطبيعى المنبعث منها والبهاء الذى يشع حولها، ياإلهى، أشكرك لأنك عوضتني خيراً عن صبرى الطويل، من الجميل أن يكون المرء زوجة مثلها، وبدأت تتحدث، هل استمعت إلى آلاف العصافير وهى تغرد دفعة واحدة؟ إن ذلك قد يحدث للإنسان مرة واحدة فى حياته. من المؤكد إنها هذه المرة.. قالت: إننى أشكرك بحرارة لأنك أعطيتنى من وقتك هذه الدقائق، فأنا أعلم كم أنت مشغول. ولكنى بحثت فىمن حولى عمن أثق برجاحة عقله فلم أجد إلا أنت، فأنت بالرغم من تخطيك سن الستين إلا أنك مازلت تفكر بقلب شاب وعقل شاب. لقد اخترتك أنت بالذات، يا عمى، من بين كل معارفنا وأقاربنا لكى أحدثك عن مشكلتى. أننى أحب شاباً فى كلية الهندسة فى السنة النهائية، وهو يصغرنى بعامين، ولقد تقدم لخطبتى بالفعل.. ووافقت أمى.. ولكن أبى من رأيه..

هل جريت الدش البارد المثلج فى شهر يناير؟ هل حدث لك أن
فوجئت بنفسك وسط عاصفة ترابية عفراء نكراء؟

تركتها تكمل قصتها لست أذكر ماذا قلت لها وبماذا أشرت عليها، كل
ما أذكره أننى أوقفت لها تاكسياً وودعتها فى أدب، سرت بخطوات ثقيلة
بطيئة هرمة إلى سيارتى، أنها المرة الأولى فى حياتى التى أشعر فيها
أننى أصبحت رجلاً عجوزاً.

قادتنى السيارة إلى منزل أهل زوجتى، فتحت لى زوجتى الباب،
ودعتنى للدخول فى برود. تكلم كل منا كثيراً فى تلك الليلة، تخلص
كلانا من طاقة الغضب المحتبسة بداخله، عدنا إلى المنزل. بالطبع هى
ليست صغيرة ولا جميلة مثل لىلى، ولكنها على الأقل لن تقول لى: يا
عمى.

مشعلة الحرائق

للمرة الألف سألتنى: لماذا أنت حزين هكذا..؟

انفجرت ساخطاً: قلت لك أنتى لست حزيناً، شرحت لك ذلك ألف مرة، تمرى لحظات شرود وتأمل لهذا العالم وأحواله ومشاكله، عند ذلك تكتسب ملامحى ذلك الشكل الذى تعتقدينه حزناً.. من فضلك كفى عن ترديد هذا السؤال.

انسحبت إلى غرفتها وهى متأكدة أنتى أكذب وأن هناك ما يحزننى على نحو خاص وأن ما يحزننى ليس له صلة بالعالم ومشاكله، وأن هناك مشكلة تتعلق بكل منا أرفض الإفصاح عنها. وكانت محقة فى شعورها، فلقد كنت أكذب فعلاً، ولكن لماذا لا أقص عليكم الحكاية من البداية؟

قابلتها صدفة فى محل من محلات لندن الكبيرة، تلك المحلات التى نتقابل فيها أكثر مما نتقابل فى أوطاننا. شاهدت وجهها للحظة

واحدة، لحظة واحدة كانت كافية لإشعال الحريق فى قلبى وإثارة
العواطف فى عقلى، وسمعت زميلتها تنادىها بسعاد.. ثم اختفت فى
زحام المحل.

جريت خارجا انتظرها عند المدخل حتى خرجت هى وزميلاتها
ولكنهما استقلتا تاكسياً كان ماراً بالصدفة.

اختفت من أمامى ولكنها لم تختف من عقلى، ظلت صورتها
محفورة بالإضافة لقرار مصيرى هام، بل أكثر القرارات مصيرية فى
حياة الرجل، سوف أتزوج هذه المخلوقة، ولكن كيف؟ من أى بلد هى؟
.. بل.. من هى؟ ..أنا متأكد أنها آنسة، فهذه النظرة البريئة الطاهرة
المتعطشة فى نقاء للحياة، أنا أعرفها جيداً.. ولكن كيف الوصول إليها..
آه.. كيف الوصول إليك ياسعادى.. وسعادتى.. يا مشعلة الحرائق فى
قلبى ومثيرة العواطف فى عقلى.

إننى أسمع الكثير عن الصدف السيئة والصدف السعيدة. ولكنى لم
أقابل فى حياتى ما يؤكد ما أسمعه إلى أن رأيتها مرة واحدة فجأة.. إنها
أجمل (فجأة) فى حياتى.. كانت داخلة إلى بناية ضخمة فى عاصمة
بلادى.. أتاح لى ازدحام المرور وتوقفه وأنا أقود سيارتى أن أتأكد أنها
هى.. نعم، إنها هى، هى سعاد. والدليل هو ذلك الحريق الذى اشتعل مرة
أخرى فى قلبى وتلك العواصف التى تكاد تقتلع عقلى. بالإضافة لصوت
ضربات قلبى التى ارتفعت حتى غطت على صوت سيارتى الجيب.

انطلقت بالسيارة كالمجنون كاسراً الإشارات متخطياً السيارات بكل الطرق غير القانونية بين سخط سائقها وشنائهم حتى وصلت إلى منزل أختي الكبيرة. وطلبت منها أن ترتدى ملابسها وتنزل معي فوراً، فى السيارة أدليت لها بأوصاف سعاد بدقة وطلبت منها أن تعرف عنها كل المعلومات الممكنة من البواب.. وهذا ما حدث بالفعل.

هى الابنة الوحيدة لأسرة ثرية وطيبة، والدها يشغل وظيفة مرموقة فى وزارة الداخلية وفى اليوم التالى مباشرة ذهبت إليهم أسرتى، والذى ووالدتى وأختى. طلب الأب منهم إعطائه فرصة لمدة أسبوع ليدرس الموضوع ويتحرى عنى وعن أسرتى، على أن يتصلوا هم بنا.. وبعد خمسة أيام مرت كأنها دهر تلقينا منهم دعوة للعشاء، فذهبنا جميعاً، وأنا معهم.. لقد حان الوقت لمشاهدة العريس، الذى هو أنا.

على مائدة العشاء يكاد قلبى أن يتوقف، فى الغالب توقف لمدة ثوان، لم تكن العروس سعاد التى أقصدها، كانت سعاد أخرى، اتضح فيما بعد أن الفتاة التى رأيته فى لندن اسمها زينب ويدلونها بسعاد.. لماذا؟ لا أعرف، يبدو أن ذلك قد حدث لتأكيد ذلك التعبير الشهير (سخرية الأقدار) .. حقا كانت سعاد العروس جميلة ورقيقة ومهذبة ولكنها لم تكن تلك الأخرى مشعلة الحرائق ومثيرة العواصف.

إنها فى أفضل الأحوال والظروف لا تشعل فى القلب سوى شمعة صغيرة، ولا تثير فى العقل إلا نسيماً رقيقاً يدفع الإنسان إلى اللعاس، ما العمل؟ كيف أقلت من هذه الورطة؟.. كان من المستحيل أن أنسحب

بعد الخطوات التى تمت .. من المستحيل أن أقول لا .. ليست هذه من أقصد وإلا لتحول الموضوع إلى عبث أطفال ودعابة قاسية، لن يغفرها لى الأب .. من المؤكد أنه سيدفعنى ثمنها غالياً .. آه .. لو كان موظفاً فى وزارة أخرى غير الداخلية .

استسلمت لقدرى وتزوجتها، وأشهد أنها حاولت المستحيل معى، ولكنها لم تغلح فى أن تجعلنى سعيداً، ليس لعيب فيها ولكن فى، فقد كانت صورة الأخرى تطاردنى .

تزوجت زينب الشهيرة بسعاد بعد شهر واحد من زواجى من سعاد وسافرت إلى بلد آخر مع زوجها وانقطعت أخبارها .

سافرت، وتركت لى الحزن والألم إلى الأبد .

بعد عامين قابلت صديقاً لى كنت أطلعته على سرى . قال لى : يا سلام على القدر هل تعرف ماذا حدث للفتاة التى أحببتها من أول نظرة .. تزوجت ثلاثة مرات وطلقت فى المرات الثلاث، زوجها الأول مازال يعانى من حالة اكتئاب حادة، وزوجها الثانى أصيب بانهايار عصبى وأهله يعالجه الآن فى أمريكا .. أما الثالث فقد أصابته لوثة عقلية، وأخذ يهيم على وجهه فى الشوارع ثم اختفت أخباره، ويقال إنه شوهد يتسول فى شوارع كوينهاجن ..

ياإلهى، كم أحب زوجتى .

دخلت أقرب محل واشترت لها هدية غالية وأسرعت إلى البيت.
في تلك الليلة اعترفت لها بتفاصيل كل ما حدث، واعتذرت لها بكل ما
أملك من حرارة.. وطلبت منها ألا تسألني مطلقاً في يوم من الأيام..
لماذا أنت سعيد هكذا؟

صيغة الاستفهام

فى عامنا الدراسى الأول فى كلية العلوم السياسية والاقتصاد، لفتت انتباهى إليها بخطواتها الجادة وصرامة نظراتها وحرصها على حضور كل المحاضرات منذ بداية العام الدراسى حتى نهايته .

وفى عامنا الدراسى الثانى شددت انتباهى إليها بقوة لقدرتها على التحصيل والاستيعاب وإلمامها الواسع بكل المراجع التى يطلب منا العودة إليها . وفى العام الدراسى الثالث كنت مبهوراً بشخصيتها وإجادتها الكاملة للغتين، الإنجليزية والفرنسية، أما فى الفصل الرابع والنهائى فقد جننت بها .

هذه المخلوقة لا تأكل مثلنا اللحم والأرز والسمك والدجاج والبيض، فى الغالب هى تتغذى على التاريخ والجغرافيا والسياسة وعوامل ارتفاع الحضارات وإنهيارها . كانت دقيقة للغاية، بل كانت أحياناً تسبب حرجاً لبعض الأساتذة بأسئلتها الذكية المثلاحة .

عندما كان الأستاذ يتكلم عن النظام السياسى فى روما القديمة مثلاً، كانت تسأله: عن أى مرحلة من مراحل الامبراطورية الرومانية نتحدث سيادتكم؟.. هل مرحلة ازدهارها؟.. أم لعلك تقصد فترة معينة من فترات انهيارها؟.. وعندما نتكلم عن روما القديمة، هل تقصد مجلس الشيوخ، أم الحرس الامبراطورى أم الشعب نفسه؟.. وحتى لو كنت تتحدث سيادتكم عن الشعب. فلا تنس أنه كان مكوناً من الأحرار والعبيد، بالطبع العبيد لم يكن لهم دور ضاغط فى رسم السياسة الداخلية أو الخارجية، ومع ذلك لعبوا أحياناً دوراً مؤثراً إلى حد ما فى ثورة العبيد التى نعرف باسم ثورة «سبارتكوس». ولكن هذه كما تعرف سيادتكم تم قمعها بقسوة لا مثيل لها.. فعن أى شىء فى روما القديمة نتحدث يا سيدى؟

يا إلهى.. كيف للإنسان أن يحمل كل هذا العلم بين جوانبه؟

فى الامتحان النهائى، كان ترتيبها الأولى على الدفعة كما هو متوقع، وكأن ترتيبى هو الثانى - ومنذ تلك اللحظة ولسنوات طويلة قادمة، سقتل هى «الأولى»، وسأظل أنا الثانى. ومع ذلك، وبالرغم من كل هذا التكامل الخشن فى الشخصية، وكل هذا التوازن النفسى الذى يصل إلى حد الصرامة العقلية، وكل هذا العلم الغزير فقد كان لها جانبها الأثوئى العذب الجميل الذى لم يتنبه له سوى.

بعد ظهور النتيجة، لحقت بها وهى خارجة من باب الكلية،
استجمعت شجاعتي وقلت لها: مبروك. أجابت فى حياء وخجل: بارك
الله فيك.

بكلمات مضطربة قلت لها: آنسة.. هل تسمحين لى أن أتحدث معك
قليلاً.. هنا فى بوفيه الكلية؟

ترددت قليلاً ثم وافقت. كانت المرة الأولى التى نجلس فيها فى
بوفيه الكلية، لملت أطراف شجاعتي وقلت لها: آنسة.. أنا من أسرة
طيبة.. وأبحث عن.. أنت تعرفين بالطبع أن الإنسان فى سن معينة
يجب أن يبحث عن.. يعنى.. أقصد أن أقول.

أطرقت بنظراتها إلى الأرض فى خجل وقد ازداد احمرار وجهها، يا
إلهى.. هل هناك أنثى على الأرض بهذا الجمال؟ قالت فى رقة
هامسة: سوف أكتب لك عنوان المكان الذى يعمل به والدى.. من
الأفضل أن تتحدث معه فى هذا الشأن، أنه جهة الاختصاص الوحيدة..
أليس كذلك؟

أخرجت قلماً جميلاً وكتبت فى ورقة صغيرة عنوان والدها ورقم تليفونه
ورقم تليفون المنزل ثم استأذنت فى الانصراف مسرعة، قبل أن تغيب عن
ناظرى سألتها وقلبي ينبض بسرعة وعنف: أفهم من ذلك.. أنك؟

قالت وهى تبتسم فى حياء: نعم.. وأفهم أيضاً أن ما تفكر فيه
يسعدنى.

يا إلهى.. ما أفكر فيه يسعدها.. يا للعنينا التي تعطى وجهها الجميل لبعض البشر أحياناً، لقد قرأت كثيراً في القصص العربية القديمة، عن الغزال الشارد.. ولم أكن أستوعب هذا التعبير جيداً.. أما الآن فقد فهمته، كانت غزالاً شرد بعيداً عني بعد أن ترك لي دفعة من السعادة قلما تتاح للبشر.

في فترة الخطبة بدأت أكتشف في أعماقها أغواراً جديدة، لآلىء مختبئة، كانت رقيقة بقدر ما فيها من صرامة، ساذجة بقدر ما تملأ به من علم، أم وأخت وصديقة وحبيبة.

أعترف لكم أنني في أحيان كثيرة كنت استكثرها على، كنت أشعر أحياناً بنوع من الأحاسيس الدونية التي تنتاب في الغالب الصعاليك عندما يجدون أنفسهم فجأة نزلاء في قصر فخم يطل على المحيط وتحيط به الحداائق الغناء.

شيء واحد كان يضايقني منها، لم يكن يضايقني بالمعنى الرديء للكلمة، ولكنه كان يشعرني باستياء خفيف هو.. صيغة الاستفهام.

كانت تستخدم في تسعين في المائة من حديثها معي صيغة الاستفهام وكأن اللغة تخلو من صيغة الإثبات هل أضع لك لبناً على الشاي؟.. أم أنك تشربه بدون لبن؟.. إلى متى ستشرب الشاي بدون لبن؟ لماذا لم تتصل بالأمس؟.. ألن تذهب للترزى؟.. لماذا لم تذهب للترزى؟ هل أنت في حاجة دائماً لمن يذكرك بمراعاة شؤونك الخاصة؟

هل ستظل هكذا بلحيتك الطويلة؟ .. ألن تعود نفسك على حلاقتها فى موعد محدد؟ .. لماذا لم تعود نفسك على حلاقتها فى موعد محدد؟ .. لست أدرى لماذا لم تكتسب عادة حلالة اللحية يومياً؟ .. ألن تكف عن دعوتى لمثل هذه المسرحيات؟ ألم تكتشف بعد أنها مسرحيات سخيّة؟ هل اكتشفت أنها مسرحيات سخيّة أم لا؟ .. بعد كم من المرات ستكتشف أنها مسرحيات تخلو من المتعة والفكر الجاد؟ .. لست أدرى متى ستنضج أفكارك؟

لم تكن صيغة الاستفهام بالتحديد هى التى تضايقتى، وإنما الجانب «الاستنكارى» فيها. ولكنى كنت أعلم من خلال قراءاتى الواسعة فى علم النفس أن فترة الخطبة هى فترة توافق بين شخصين جاءا من عالمين مختلفين. وأنه بالحب والإصرار والفهم سيعرف كل منا الآخر جيداً، ويكتشف ما يضايقه فيكف عن فعله، حتى يتحوّل بفعل الهدف المشترك إلى شخص واحد، كنت أحبها، وكانت تحبنى بالطبع، الخلاف بيننا كان فى الطريقة التى يظهر بها كل منا حبه للآخر، وبما أن كل شىء على الأرض لا يثبت على حال وأن كل شىء يتغير، لذلك فقد تغيرت صيغة الاستفهام الاستنكارى إلى صيغة الاستفهام التأنيبى الذى مالبث بدوره أن استقر فى شكله النهائى على صيغة الاستفهام الاستنكارى، التأنيبى، الهجومى، حدث هذا بعد أن تزوجنا.

يا سلام .. لو طبخت لنا أرزاً اليوم؟

- أرزأ؟.. هل تريد أن تأكل أرزأ.. ألا تكفيك هذه الزيادة المفزعة
فى وزنك؟ هل تريد أن تتحول لڤيل؟

- ملعقة واحدة، أو ملعتين ..وسأمتنع عن العشاء.

- أنت لا تريد زوجة.. أنت فى حاجة لطاهية.. لماذا لم تصارحنى
بذلك منذ البداية؟ كلمنى بصراحة.. ما هى فكرتك عن الزواج؟ هل
تتصور الزوجة جارية، تطبخ وتغسل وتهتم بشئون الأولاد؟ لقد انتهى
عصر الجوارى. ألا تعرف أن عصر الجوارى قد انتهى منذ زمن
بعيد؟.. كان يجب أن توجد فى العصر العباسى، كنت ستجد جارية
بسهولة.. جارية خمس نجوم.. تجيد الطبخ والغسيل والعزف على العود
والغناء والرقص.. انتبه.. لماذا لا تنتبه إلى أن الزمن قد تغير، لماذا لم
تكتشف حتى الآن الفروق الهامة بين الزوجات وبين الجوارى؟

- حسناً.. أنا آسف.. لست أريد أرزأ.

- ماذا تريد إذن؟.. مكرونة؟ وكيف تريدها؟ أسباكتى أم فى
الفرن؟ كن شجاعاً واعترف أنك تحب المكرونة.. لماذا لا تتمتع
بالشجاعة العقلية الكافية لتعترف أنك تحب المكرونة؟

- نعم أحبها..

- ولماذا الكذب والجبن إذن؟.. لماذا لا تعترف منذ البداية أنك تريد
أن تأكل مكرونة؟ أنت تحب المكرونة، هل تعتقد أن هذه الحقيقة خافية
على أحد؟.. يالدلع الرجال الذين تخلوا عن مسئوليتهم تجاه البشر. هل

تعلم كم شخصاً مات فى إفريقيا جوعاً بسبب الجفاف؟ .. لماذا لا تحمد الله على ما تتمتع به من نعم؟ ومع ذلك ولكيلا تتهمنى بأننى أضايك .. سوف أطبخ لك أرزاً .. انبسطت؟
- نعم .. وأشكرك .

- هذا القميص ليس نظيفاً .. أعطنى من فضلك قميصاً نظيفاً .
- آه .. قلت لك أنك لا تريد زوجة .. أنت فى حاجة إلى غسالة ..
لماذا لا تعترف أنك فى حاجة لغسالة .. هـ .. ؟
انفجرت صارخاً بصوت اهتزت له جدران الشقة والشقق المجاورة:
أرجوك يا بنت الناس .. حرام عليك .

عدت من العمل فلم أجدها فى المنزل كانت غاضبة فى منزل أسرتها، فى اليوم التالى ذهبت أعذر لها واسترضيها ثم أعود بها . تكررت هذه العملية حوالى خمس وعشرين مرة فى ثلاثة أعوام، وفى كل مرة كنت أعذر، لأننى المخطيء، فقد كنت أصرخ، ومن الخطأ أن يصرخ الرجل فى وجه زوجته . أليس كذلك؟

وذات مرة عقب سيل من الأسئلة الاستنكارية التأنيبية الهجومية الاتهامية، صرخت وقذفت ببعض الأشياء إلى الأرض فتحطمت، وخرجت لعملى .

عندما عدت لم أجدها، كنت أتوقع ذلك بالطبع، أما الأمر الذى لم أكن أتوقعه فهو أن أجد شفتى خاوية على عروشها .. إلا من ملابسى

التي كانت ملقاة على الأرض، جدران وأرض وسقف فقط. ماذا أفعل؟.. هل سأذهب إليها لأسترضيها وأعتذر لها مثل كل مرة؟ وفي المرة القادمة؟ وفي المرة بعد القادمة؟.. هل ستكون هذه هي حياتي إلى الأبد؟ وإلى متى سأتحمل؟

بدافع من التعاسة واليأس خرجت من الشقة إلى قريتنا.. رحبت بي أمي.. قلت لها: زوجيني يا أمي. اختاري أنت لى.

كانت أمي تقول دائماً: إن الرجل عندما يختار زوجته، عليه أن يبحث عن أسرة طيبة هادئة.. هذا هو الشرط الأول والأهم في عملية الاختيار، فالفتاة التي تربت على الطيبة والهدوء واحترام الأب، سوف تعامل زوجها من نفس المنظور التي كانت تعامل به والدها.

بعد عشرة أيام بالضبط، انتهيت من تأنيث شفتي واستقبلت زوجتي الجديدة.

أنا الآن مستمتع بحياتي. لن أذكر لكم التفاصيل فأنا أخشى الحسد، أرسلت ورقة الطلاق للأخرى.. أتخيلها الآن وهي تطلق سهامها الاستفهامية الاستنكارية الهجومية، التأنيبية. ماذا يظن نفسه؟.. هل يعتقد أنني أحفل به أو بالطلاق منه؟.. هل يظن أنني سأتحمله للأبد؟.. هل يعتقد أنني مثل الأخريات؟.. بالطبع سوف يكتشف الفرق بيني وبين زوجته الجديدة الجاهلة.. أليس كذلك؟ أم تعتقدون أنه ليس كذلك؟.. هل يعتقد أنني سأهتز لهذه الفعلة؟.. هـ .. أم أنه؟.. ؟.. ؟.. الخ .. الخ .. الخ ..

كمونيات

أنجبت ثلاث بنات من الزوجة الأولى . وبنيتين من الزوجة الثانية .
وينتأ واحدة من الزوجة الثالثة، لم أياس، ولم أسمح للمرارة بالاستيلاء
على، فأنا عادة أعرف هدفي تماماً وأتحرك صوبه في هدوء وبلا توتر،
وعلى استعداد لأن أخوض ألف معركة فاشلة لكي أنتصر في المعركة
الواحدة بعد الألف .

ومعركتي الوحيدة في هذا العالم - بصراحة - هي أن يكون لى ولد
يحمل اسمى واسم أسرتى العريق: الكمونى .

فأنا آخر رجل يحمل اسم الأسرة، ويموتى يختفى هذا الاسم من فوق
الكرة الأرضية، وهذا أمر يصيبنى مجرد التفكير فيه بالفزع، لذلك
تزوجت للمرة الرابعة، حمداً لله، لقد رزقت بالولد أخيراً، أخيراً شاهدت
بعينى رأسى الكمونى الصغير - ابنى - يأتى إلى الدنيا بعد طول انتظار
حاملاً معه الأمل فى أن يبقى اسمى ذائعاً ومنتشراً بين البشر إلى الأبد .

بعد أن أنجبت أربع فتيات، ولم يضايقنى ذلك . ولم اهتم للأمر . فقد كان يكفينى فى هذه الدنيا أن أنظر لوجه ولدى - الكمونى الصغير - لكى أشعر بالفخر والسعادة والكبرياء .

نشأ ابنى - الكمونى المنتظر - محاطاً بعطف وحسد أخواته البنات وحقد ثلاث زوجات وحب أمه وأبيه . وفرت له كل أسباب الراحة والسعادة، فلست أريد له أن ينشأ عادياً يتوه أو يذوب اسمه بين ملايين البشر، أحطته بكل أنواع المربيات والخدم، كان له سائقه الخاص منذ طفولته، وفى مراحل التعليم الإبتدائية والإعدادية والثانوية كان طاقم المدرسين بأكمله ينتقل إلى منزلى ابتداء من لحظة الغروب ليقوموا بإعطائه دروساً خصوصية فى جناحه الخاص، وفى الأجازات الصيفية كنت أرسله إلى أجمل شواطئ الدنيا، ولكن اسمحو لى أن أتوقف قليلاً لكى أوضح حقيقة هامة، لقد حرصت دائماً وبالرغم من كل شىء على ألا يكون فتى مدللاً، كنت أريد له أن يؤمن بأنه أقوى من الآخرين، بمعنى أنه قادر على أن يفعل مالا يستطيعه الآخرون وبذلك يأتى من حلائل الأعمال والأفعال بما يجعل اسمه محفوراً وإلى الأبد فى أذهان الناس، لعلكم تريدون أن تسألوا، ماذا حدث لبناتى؟ لا شىء تخرجن فى الجامعة وحصلت بعضهن على الماجستير والبعض الآخر على الدكتوراه وكلهن عملن فى وظائف مرموقة فى الجامعات والحكومة، وتزوجن زيجات ناجحة، أما ابنى - الكمونى - فقد شاء الله أن يكلل مجهودى وكفاحى الطويل بالنجاح، لا تستطيع أن تسير فى شوارع المدينة دون

أن يصطدم بصرك باسمه وقد رسم بالأضواء والألوان، لقد أصبح ابني - كما أردت - واحداً من أشهر العاملين في حقل التشييد والبناء والاستيراد والتصدير والتجارة والصناعة، بل أصبح الكمونى رمزاً للقوة والنشاط والنفوذ والنجاح. ولكن شيئاً ما كان يضايقنى، إن هذا اللمعان تشاركه فيه عشرات الأسماء، بل مئات الأسماء، إننى أريد لاسم أسرتى لمعاناً آخر، لمعاناً متوهجاً، ساطعاً مبهرأ قوياً، يثير اهتمام البشر بشكل أكثر حدة وسخونة، لم يعد يمتعنى أن أقرأ الاسم داخل براويز الاعلانات أو اللافتات، أريد أن أقرأه ويقرأه الآخرون فى الصفحات الأولى فى الصحف والمجلات وأن أسمع عنه فى نشرات الأخبار.

وأخيراً حدث ذلك، ولكن للأسف بطريقة لم تكن فى الحسبان، فذات صباح طلعت علينا جرائد الصباح بخبر أثار اهتمام الجميع، النيابة تأمر بالقبض على الكمونى، وتوالت الأخبار بكل أنواع المصائب مقترنة باسم أسرتى، الكمونى يقع فى قبضة العدالة، ضحايا الكمونى بالآلاف، الكمونى يحتال على البنك الفلانى والبنك العلانى، شيكات الكمونى بدون رصيد، الكمونى متهم بغش مواد البناء، الكمونى يستورد أغذية ملوثة بالإشعاع، زوجة الكمونى تطلب الطلاق، أخوات الكمونى البنات ينكرن أى صلة لهن به.

لم يعد لكل أجهزة الإعلام إلا الحديث عن الكمونى مقترناً بكل أنواع الجرائم، فيما عدا القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد.

يا إلهى، لقد كنت أريد لاسم أسرتى الانتشار والذيع. ولكن ليس بهذه الطريقة .

(ملحوظة: مات كاتب هذا الاعتراف من فرط الحزن والخجل بعد كتابته بساعتين .. رحمه الله .. أما الكمونى الصغير فقد حكم عليه بمائتين وسبعين عاماً مع الأشغال الشاقة، وذلك فى قضية الشيكات وحدها، ومازالت المحاكم تنتظر بقية القضايا، كان الله فى عونهُ) .

أنا مسافر

استيقظت من النوم مرهقاً عكر المزاج . فقد قضيت شطراً كبيراً من الليل ساهراً، أفكر في الطريقة التي أسوق بها إليها خبر سفرى إلى أمريكا، فلاهى ولا أية زوجة فى الدنيا ترحب بأن يبتعد عنها زوجها لمدة ثلاثة شهور . أعنى أنه لا زوجة على وجه الأرض ترحب بأن يتمتع زوجها بحريته لمدة ثلاثة شهور فى مدينة مثل واشنطن . قد ترحب فى حالة واحدة إذا كان سيقضى هذه المدة فى سيبيريا أو فى زائير مثلاً .

أخيراً جاءنى السؤال الذى أنتظره .

— مالك ؟

: لا شىء .

— لماذا لم تحلق لحيتك ؟

: سوف أحلقها .

- هل ستحلقها لمجرد أننى سألتك لماذا لم تحلقها؟

هناك صنف من البشر لا يعرفون عن الحوار إلا أنه أسئلة فقط،
أسئلة غاضبة، أسئلة استنكارية، أسئلة تحوى فى ثناياها اتهامات
غامضة وغير محددة، أما الأسئلة المروعة حقاً، فهى الأسئلة التى لا
إجابة لها .

- إننى سأحلق لحيتى لسبب بسيط جداً، هو أننى تعودت على
حلاقتها كل يوم .

- ومع ذلك كنت ستنسى أن تحلقها لولا أننى ذكرتُك بأن تحلقها . ما
الذى دفعك لنسيان هذه العادة هذا الصباح ..؟ ماذا يشغل بالك ..؟

هذه هى فرصتى للدخول فى موضوعى مباشرة، قلت بجِد شديد:
أنت حساسة فعلاً .. ولديك خبرة عميقة بالنفس البشرية .. أنا قلق
ومشغول فعلاً .. إن هذه المهمة .

قاطعتنى فى توجس: أية مهمة ..؟

- مهمة عاجلة فى البنك الدولى فى واشنطن .. قسم مراجعة
حسابات العالم الثالث .. لقد اختاروا محاسباً من كل بلد .. ولقد وقع
الاختيار على لى أسافر .. ستسغرق هذه المهمة ثلاثة شهور .

- ثلاثة شهور؟

قالتها باستنكار وبصوت حاد وكأنها تصرخ، سكنت لحظة ثم واصلت: ولماذا اختاروك أنت بالذات.

برنة غضب خفيفة رددت عليها: لكفائي طبعاً.. ماذا تظنين إذن؟
هل أنا صديق للبنك الدولي حتى يختارني لهذه المهمة؟

- قلبي يحدثني أنك أنت الذى سعيت من أجل هذه المهمة..
بذمتك.. ألم تسع أنت للسفر..؟

- ولماذا أسعى أنا للسفر فى مثل هذه المهمة الشاقة؟.. لقد أخبرنى زملائي الذين عملوا هناك أن العمل يستمر حوالى عشرين ساعة فى اليوم.. إن مجموعتنا الأخيرة التى عملت هناك مات منها ثلاثة من الإرهاق.

- يا مسكين.. قلبي معك.

لجأت أخيراً لسلحها المفضل، السخرية، وعلى أن أتحمل طلاقاتها المتهكمة لتمرير العاصفة، قلت: يا عزيزتى.. هل تعتقدين أننى ذاهب لأمريكا لكى ألهو وألعب؟

قالت: يا عزيزى.. أنا لا أعتقد ذلك.. أنت الذى نعتقد ذلك.. بمعنى أدق.. أنت تتوهم ذلك.. أنت تتوهم أنك مازلت صالحاً للعب دور روميو أو دون جوان فى أمريكا.. ولكن ثق يا عزيزى أنك واهم تماماً.. إن كرشك قد تعدت كل المواصفات المسموح بها عالمياً.. وصلعتك وستك تجعلان فرصتك فى اللعب ضئيلة للغاية، بل منعدمة.. كما أن

ملاحك - واغفر لى صراحتى - لا تجذب أية أنثى فى دولة
متحضرة مثل أمريكا.. تأكد يا عزيزى أنهم هناك لا يرضون بالهم
مثلنا نحن نساء العالم الثالث.

تجاهلت سخريتها قاصداً تحويل الجو المتوتر إلى جو مرح، قلت لها
فى استنكار شديد إننى لا أسمح لخيالك أن يطير بعيداً إلى مثل هذه
الأماكن البعيدة.. ومع ذلك فإننى اعترف بأن إنسانة واحدة فى أمريكا
هى وحدها القادرة على أن تدير رأسى وتفقدنى أتزانى، مارلين
مونرو.. وهى لحسن حظك، ماتت منتحرة منذ زمن بعيد.. صدقنى يا
عزيزتى إن الفراغ الذى سأشعر به بعيداً عنك، لم تخلق بعد المرأة التى
نملؤه .

ابتسمت وملاحك الشك مازالت تملو وجهها وقالت: كانت جدتى
تقول: «يامآمنة للرجال.. يامآمنة للمية فى الغريال» .

- ماذا يعنى هذا المثل؟

- هو مثل موجه للمرأة.. إذا وضعت ثقتك فى رجل فكأنك تضعين
الماء فى خريال.

- يا حبيبتى.. لكل شاعسة شواذ.. وأنا الشاذ الذى يثبت هذه
القاعدة.. أنا الغريال الوحيد فى هذا العالم الذى يحتفظ بالماء، أنا الرجل
الوحيد فى هذا العالم الذى لا يشكر إلا فى بيته وامراته وأرلاده .

- بالمناسبة، ماذا سأفعل فى مذاكرة الأولاد، هشام ضعيف فى الرياضيات والجغرافيا والعربى والتاريخ، وليد ضعيف فى الهندسة والجغرافيا واللغة الإنجليزية .. ومى متعثرة جداً فى كل المواد .
بدأت مرحلة فرض العقوبات الاقتصادية .

- أعلم يا حبيبتى مقدار العبء الذى ألقيه على كاهلك .. سوف أعطيك مبلغاً لمواجهة الدروس الخصوصية .
- المدرسون الجيدون نادرون هذه الأيام .. وإذا وجدوا، فأسعارهم نار ..
- لا مفر من دفع ما يطلبون .. اتفضللى ..

أعطيتها مبلغاً كبيراً يكفى لإعطاء دروس خصوصية لفصل دراسى كامل به مائة طفل، مبلغاً أزعج أن ابن خلدون نفسه لم ينفقه على كل مراحل تعليمه .

بعد أن وضعت المبلغ فى حقيبتها قالت بأسى: ومن يثق فى مدرسى هذه الأيام ..؟ إنهم لا يشرحون بالحماس اللازم .. سوف أتولى بنفسى هذه المهمة .

قلت بلهفة: بنت حلال .. كنت على وشك أن أقترح عليك ذلك .
سكنت لحظة ثم قالت بلهجة جادة: هذا الأمر سوف يتطلب منى تفرغاً كاملاً .. لذلك سأحصل على أجازة من عملى بدون مرتب لمدة ثلاثة شهور .

- سوف أصاعف مصروف البيت .

- لا أذكر ذلك لكى تضاعف مصروف البيت .. لأن هذا أمر منطقي .. أنا أقوله لك من باب العلم بالشئ .. ومع ذلك، أنا أوافق على أن تضاعف المصروف عن هذه الشهور الثلاثة فقط .. لأننى سأحضر شغالة أخرى .. الشغالة الموجودة عندنا، لا تستطيع أن تكون مسئولة وحدها بحيث أفرغ أنا للأولاد تفرغاً كاملاً.

- حسناً تفعلين .. لا مفر من ذلك.

تنهدت وقالت فى حيرة: ومسألة ذهاب الأولاد إلى المدرسة وعودتهم منها؟

- نحن مشتركون فى أتوبيس المدرسة، أليس كذلك؟

- الأتوبيس يتعطل كثيراً.

- هذا أيضاً فكرت فيه .. ولذلك طلبت من سائقي الخاص فى الوزارة أن يتصل بك كل يوم فى السادسة صباحاً .. لكى يوصلهم إذا تعطل الأتوبيس.

ضحكت ضحكة قصيرة وقالت: ثقتك كبيرة فى أجهزة التلفزيون .. ماذا سيحدث إذا تعطل التلفزيون؟

سكت؟ ماذا تريد منى؟ ماذا أفعل؟ هل أقوم باستئجار قمر صناعى خاص أو أقوم بتركيب محطة إرسال لاسلكية فى البيت ..؟

فجأة. نظرت لى فى ضياع وقالت: ولكن .. هل حقاً ستسافر يا حبيبى ..؟ وانهارت باكياً ..

كل هذا الحب

فى مطار نيويورك، كان على أن أقضى أربع ساعات فى انتظار الطائرة التى ستقلنى إلى واشنطن. أخذت أتمشى متفرجاً على واجهات الحوانيت الصغيرة المنتشرة فى مبنى المطار بحثاً عن كتاب طريف أقل به الوقت، وجدت كتاباً يحمل عنواناً جذاباً «رسائل حب»، تصفحت الكتاب بسرعة ففوجئت بأنه موجه أساساً لغير القادرين على كتابة كلمات الحب للآخرين، نماذج من خطابات الحب الملتهبة للخطيبة وللزوجة فى كل المناسبات. لدرجة أن المؤلف لم يهتم بالمطلقات، فهناك فصل كامل مخصص للأزواج الذين يريدون استعادة زوجاتهم.

اشتريت الكتاب على الفور وجلست أتصفحه حتى وصلت لباب «رسائل من الزوج المسافر». أعجبتنى رسالة فأخذت أتسلى بترجمتها، سوف أرسلها لها بمجرد وصولى إلى واشنطن، كم أود لو أرى وجهها

وهى تقرأ رسالتى الملهبة، اعتقد أنها سوف تدهش كثيراً لقدرتى
المفاجئة على كتابة رسالة حب بكل هذا الاتقان، لقد حل لى هذا الكتاب
مشكلة كبرى، أنه كنز من الرسائل الرقيقة سيكفينى طوال مدة إقامتى
فى واشنطن، مع مراعاة إضافة بضعة جمل من عندى بالطبع.
وجاءتنى أولى رسائلها.

ما كل هذا الحب يا رجل؟ .. ما هذه الكلمات الرقيقة التى لم أعهد لها
منك من قبل؟ هل كان يجب أن تبعد آلاف الأميال لى تتحول
لشاعر، لماذا لم تكن تقول لى مثل هذا الكلام؟ عموماً، أنت أيضاً
واحشنى جداً. كلنا بصحة جيدة فلا تشغل بالك بنا واعتن بنفسك
وبصحتك ولا تقلق. كل شىء تمام، ماعدا بعض المسائل البسيطة التى
تحدث كل يوم فى كل بيت، فبالأمس انفجرت ماسورة المياه الموصلة
للحمام من المطبخ والتى تمر داخل الحائط الملاصق لحجرة النوم
وأخذت المياه تتسرب منها أياماً دون أن نشعر بها، لأنها ممتدة داخل
الحائط بمحاذاة السرير، وعندما تشبع الحائط أخذت المياه تتسرب
للسجاجيد عند ذلك تنبهت فأحضرت السباك الذى قال إنه لا بد من
إزالة هذا الجزء من الحائط وإخراج الماسورة ثم تركيب واحدة جديدة
بشكل أفضل، على العموم لا تشغل بالك بهذا الموضوع ولا تقلق،
سأتولى هذه العملية، إنها فرصة لإزالة الحائط كله وضم حجرة النوم
للصاله فتصبح أكثر اتساعاً، سأقوم بتحويل غرفة السفرة لحجرة نوم، أما
محتويات غرفة السفرة فسوف أبيعها (بعد إذنك) .. لمواجهة نفقات هذه

العملية، اطمئن عندما تعود بإذن الله ستجد البيت أكثر جمالا، الشغالة الجديدة التي أحضرتها نشيطة جداً ونظيفة ومؤدبة ولكنها مصابة بداء السرحان، أول أمس تركت البوتاجاز مشتعلا وفوقه (الطبخ) ثم ذهبت لتنام، لك أن تتصور حجم الكارثة التي كادت أن تحدث لولا حساسية أنفى الشديدة .

شمعت رائحة الغاز وأنا فى شقة الجيران فقد كنت أزور السيدة اعتدال - على فكرة هى مريضة جداً وعلى وشك أن تموت - وعلى الفور عدت وكسرت باب الشقة بمساعدة الجيران حيث أننى نسيت المفاتيح داخل الشقة، أغلقت أنبوبة البوتاجاز على الفور وفتحت كل النوافذ. خسرنا فى هذه العملية ثلاثة كيلوجرامات من شرائح اللحم البتلو التى تحبها يا حبيبى، عموماً لا تخف لن يحدث هذا مرة أخرى، لقد طردت الشغالة، فلا تشغل بالك ولا تقلق علينا، أريدك أن تقبل على عمك بذهن صاف وقلب مبهج مطمئناً إلى أننى أسيطر هنا على كل الأمور فيما عدا بعض الأشياء التى تتطلب وجودك بطبيعتها مثل خطاب مصلحة الضرائب الذى استلمته أخيراً، إنهم يطالبونك بمبلغ عشرة آلاف جنيه، فذهبت إليهم ومعى الأستاذ عبدالله زوج عمى الذى يعمل محاسباً كبيراً، وقدمنا طعنا فى التقدير، على العموم اطمئن لا تشغل بالك ولا تقلقك هذه المسألة، لقد وعدونى أن يؤجلوا الحجز على رصيدك فى البنك وعلى أملاكك إلى أن تأتى، لذلك أنصحك ألا تتأخر يوماً واحداً عن التسعين يوماً المحددة للمهمة، إن حزن الأولاد

وحزنى لغيابك يفوق الوصف. لم يعد لشيء أى طعم، أنا والأولاد وزننا يتناقص باستمرار، الشحوب أصبح يعطو وجوهنا، كل ما نرجوه منك ألا تقلق علينا وأن تهتم بصحتك لأنك حساس جداً للبرد. ترى؟.. ماذا فعلت بك الثلوج فى أمريكا؟.. إن البرد عندنا أخف بكثير من عندكم ومع ذلك أصيبت ابنتك بنوبة برد حادة وارتفعت درجة حرارتها إلى حد مخيف، وأخذت تهلوس: يا بابا.. عد إلينا يا بابا.. أشعر بالبرد يا بابا.. حتى أن الطبيب بكى وقال: لا شيء فى هذه الدنيا يستحق أن يترك الأب أولاده لمدة خمس دقائق.. إننى فى دهشة من أمر هؤلاء الآباء الأوغاد الذين يتركون أولادهم. عند ذلك ثرت فى وجهه وأخبرته أنك لم تتركنا. أنت فقط فى مهمة. إننى لا أسمح لأحد مطلقاً يا حبيبى أن يمسك بكلمة واحدة فى غيابك.

زوجى الحبيب.

معذرة لثرثرتى، أطلت عليك. ولكننى أطلب منك شيئاً واحداً، أن تهتم بصحتك ولا تشغل بالك فنحن بخير.. قبلاتى.. و.. إلخ.. إلى غير ذلك.

انتهى الخطاب، وفى نهاية قراءتى للخطاب انتهت أجازتى، الآن فقط عرفت معنى تلك النصيحة الغالية التى كان يقولها العرب الأقدمون، عندما ترحل، أرحل وحدك، لا تأخذ الهم معك. كنت أعتقد أننى مسافر وحدى بعيداً عن أى هم وأى غم، إن العرى القديم الذى قدم هذه النصيحة للأجيال القديمة، لم يكن يعرف أنه سيأتى يوم يعبأ

فيه الهم والغم فى قطع من الورق يسمونها خطابات تصل إلى البشر أينما كانوا وحيثما حلوا، لا حل لهذه المشكلة إلا باختراع جهاز جديد يوضع فى مصلحة البريد، تدخل فيه الخطابات فيستبعد منها تلك التى تحوى الغم والهم وتعيدها لمرسلها الأصلي أو على الأقل، يفرزها ويطلع عليها بخط واضح عبارة «نحذرك من قراءة هذا الخطاب، أو عبارة «هم جدا بدلا من هام جدا».

وحيدا فى غرفتى، أشعر بحزن غامر يجتاحنى، وعلى الرغم من التدفئة المركزية التى أحالت المكان إلى فرن إلا أننى شعرت ببرودة تتسلل لقلبى، بين النوم واليقظة. أسير فى شارع مزدحم من شوارع واشنطن، السيارات تمرق بسرعة بجوارى تحت الرصيف، يد فى الزحام تمتد لتقذف بى تحت العجلات، استيقظت مفزوعاً أكنم صرخة، يا إلهى، هل سأموت فى هذا المكان؟ .. لا داعى للقلق، أولادى سيقبضون مائة ألف دولار، مبلغ التأمين الذى يخصصه البنك الدولى لموتى العالم الثالث الذين يأتون للعمل به، جميل أن يثرى الأولاد بموت الآباء، أليس هناك أى شىء جميل فى هذه الرحلة؟ نعم هناك. باتريشيا الحسناء.. لماذا لا أدعوها لقدح من القهوة فى مكان هادىء، لعلها تنسينى بعض أحزانى. من يدرى، قد تنسينى كل أحزانى. فى الغد سأدعوها. ونمت.

هى والخايب حسن

البطلة دائماً فى الحوادث القديمة التى كانت تقصها على جدتى قبل أن أنام، اسمها ست الحسن والجمال. ولو كانت جدتى قد شاهدت سكرتيرة رئيس القسم الذى أعمل به فى البنك الدولى لغيرت اسم البطلة فى كل التراث الشعبى وأسمتها «باتريشيا» باتريشيا هى حسناء أمريكية، أمها إيطالية وأبوها ألمانى وجدتها لأمها دانمركية وجدتها لأبيها بولندية وجدتها السابعة أسبانية. هذا هو ما تنهى إلى سمعى وهى تحكى لصاحبها بينما كنا نتناول وجبة غذاء خفيفة فى كافترىا البنك، كنت أجلس خلفهما تماماً، وكانت تضحك ضحكة جميلة لها رنين الأجراس الفضية، إذا حدث وكانت هناك أجراس فضية. لقد اتحدت أوروبا الشرقية والغربية وأمريكا من أجل هدف جليل هو صنع باتريشيا، فجاءت قطعة فريدة من الحسن والجمال، يصدق عليها القول المشهور «تقول للقمر من فضلك قم لأجلس مكانك».

فإذا كانت هي ست الحسن والجمال المعنية في كل الحوادث الشعبية، فمن يكون إذن الشاطر حسن؟.. الإجابة تتطلب عمل تحريات واسعة عنها قبل أن أتقدم لدعوتها لفنجان القهوة . في بلادى تستطيع أن تعرف أية معلومات عن أى شخص بسهولة عن طريق السعاة والفراشين الذين يعملون في مكتبه في مقابل هدايا صغيرة، تبدأ من سيجارة واحدة، وأحياناً بدون هدايا، ستجد دائماً متطوعين يأتون ليقصوا عليك أخبار فلان وعلان وأخبار فلانة وعلانة، ولكن الناس هنا صامتون صمت القبور، فعندما يعملون، يعملون فقط، يعملون في صمت ولا يتبادلون من الكلمات إلا الضروري جداً، اللازم للعمل .

إن الكلمة الوحيدة التى يتبادلونها وليس لها صلة مباشرة بالعمل هي لفظ التحية «هاى، هاى فقط وترجمتها في قاموسنا (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. كيفكم؟ .. كله تمام؟ .. وازى الصحة؟ .. كيف الجماعة؟ .. وكيف حال الأولاد.. عاملين إيه في الدراسة؟ .. أهلاً وسهلاً.. وأخبار فلان؟ .. بخير؟ .. الحمد لله .. وعلان؟ بخير.. ؟ الحمد لله .. هل تزوج فلان؟ .. الحمد لله .. ربنا يتمم بخير.. هل تعلم أن إعلان قد حصل على الترقية بالأمس؟ إنه يستحق كل خير؟ .. ياه .. تصور، الساعة الآن تقترب من الثانية .. لقد انتهت ساعات الدوام .. الوقت يمر سريعاً.. السلام عليكم) .. يختصرون ذلك كله في كلمة واحدة هي .. هاى .. ثم ينهمكون في العمل . ولذلك استبعدت تماماً أن أعرف أى شيء عن باتريشيا من خلال موظفى البنك، فى الغالب هم

أيضاً لا يعرفون عنها أى شىء، ولمعت فى ذهنى فكرة. لماذا لا أستعين بشرطى سرى خاص من النوع الذى نشاهده فى مسلسلات التليفزيون الأمريكى إن المثل يقول. إذا كنت فى روما، فافعل ما يفعله الإيطاليون. وبالقياص نستطيع أن نقول: إذا كنت فى واشنطن، فافعل ما يفعله الواشنطنيين أو الوشانطة. وبالفعل أخذت أتصفح دليل التليفونات إلى أن عثرت على رقم تليفون مكتوب أمامه، مكتب شرطة للتحريات الخاصة. اتصلت به على الفور فحدد لى موعداً فى اليوم التالى صباحاً. على باب المكتب دفعت عشرة دولارات رسماً للدخول ثم قابلنى الرجل فى الموعد المحدد بالثانية بترحيب شديد قائلاً: سوف أعطيك من وقتى خمس دقائق مقابل العشرة دولارات التى دفعتها.. أدخل فى الموضوع فوراً.

- أريد معلومات عن شابة اسمها باتريشيا سنكلير، تعمل سكرتيرة رئيس قسم مراجعة حسابات العالم الثالث بالبنك الدولى.. هل هى متزوجة؟.. مخطوبة؟.. هل هى مرتبطة بعلاقة حب مع أحد..؟
- لماذا؟

- أريد أن أدعوها لتناول فئجان قهوة، لكى أدرسها عن قرب، إننى مكلف من أحد أصدقائى بالبحث عن عروس أمريكية.

- حسناً، أنت تريد الإجابة عن ثلاثة أسئلة، السؤال الواحد سيكلفك عشرين دولاراً.. أدفع ستين دولاراً، ووقع على هذا الإقرار ومضمونه

أن المعلومات التي ستحصل عليها عن طريق مكتبنا لن تستخدم في إحداث أذى أو ضرر من أى نوع لأى مخلوق .

وقعت الإقرار ودفعت الستين دولاراً.. أنها على كل حال ليست مبلغاً كبيراً، إن الإنسان ليدفع عمره أحياناً ثمناً للمعرفة .

رفع الرجل سماعة التليفون فى حركة بوليسية خاطفة ولدهشتى الشديدة وجدته يطلب إيصاله بباتريشيا نفسها . قال لها: هنا مكتب كذا للتحريات الخاصة.. لدينا هنا رجل إفريقى يعمل عندكم يريد أن يدعوك لتناول قُذح من القهوة ويود أن يعرف ما إذ كنت متزوجة أو مخطوبة أو تربطك علاقة حب بأحد .

استمع لها للحظات ثم وضع سماعة التليفون وهب واقفاً وهو يمد لى يده مصافحاً: ليست متزوجة وليست مخطوبة ولا تربطها علاقة حب بأحد.. وهى على استعداد لتناول القهوة معك إذا طلبت منها ذلك.. مع السلامة .

فى مقهى جميل اختارته هى من مقاهى ضاحية جورج تاون الجميلة، جلست مع باتريشيا نحتسى القهوة، إنها القهوة السادة الوحيدة فى حياتى التى كان لها طعم العسل . لقد بدأ الجزء الشائق فى الحدوث، لقد استطاع الشاطر حسن أن يصل لست الحسن والجمال، وتذكرت الجملة التى يرددها صديقى صاحب الباع الطويل فى مثل هذه المسائل: فى البدء كانت القهوة .

غداً سأدعوها على العشاء ثم أدع الأمور تجرى فى أعنتها ولن أبىء
إلا خالى البال.. سأدع الأمور تجرى فى أعنتها إلى مالا حدود ومالا
نهاية، أمريكا، كم أنت عظيمة ولم الانتظار إلى الغد.. سأدعوها الآن..
بعد تناول القهوة .

عرفت منها أنه قد مر عامان على آخر دعوة وجهت لها لتناول
القهوة، السبب معروف بالطبع لا أحد يتخيل أنها ستبلى دعوته، تماماً
كما لا يتخيل أحد أن ينزل القمر من السماء ليجلس على المقاهى..
لذلك يمتنع الجميع عن المحاولة، مجرد المحاولة.

بعد أن شربت القهوة نظرت فى ساعتها وقالت برقة: شكراً على
القهوة.. أشكر لك هذه اللحظات اللطيفة.. هل تأذن لى الآن
بالانصراف.. لدى موعد مع صديقى وهو يغضب جداً عندما أتأخر
عليه.

- صديقك؟.. لقد فهمت أنه لا علاقة حب تربطك بأحد.

- ومن تكلم عن الحب؟.. هو صديقى فقط.. علاقتى به لم تتعد
بعد مرحلة الصداقة.

انهارت أحلام بحجم جبال التبت بداخلى، تمزقت آمالى كلها فى
لحظة واحدة وتناثرت على مساحة شاسعة من الجليد الذى يملأ قلبى،
من الغريب أن الحوادث الشعبية القديمة لم تحدث عن الخايب
حسن.. لقد اتضح أن لها شاطر حسن أمريكيا تسميه صديقاً.

ضاعت أحلامى بنفس الطريقة التى ضاعت بها السبعون دولاراً من قبل.. لا داعى لغزو هذه المنطقة من العالم، إنها محصنة تماماً. قلت لها بحزن: حسناً يا آنسة.. سوف أقوم بتوصيلك..

ضحكت وقالت: توصلنى إلى أين؟.. إنه يسكن فى نفس المبنى الذى يقع فيه المقهى..

آه.. بنت الإيـه.. لقد كانت فى حاجة لتوصيله.. أيتها الأرض.. ابلعنى.

من الغريب أن الأرض لم تبلعنى، ومن الغريب أيضاً أننى لم أمت من الخجل.

مرت أيام كئيبة متشابهة، من غرفتى للبـك ومن البـك لغرفتى تسليتى الوحيدة كانت منحصرة فى النوم أمام التليفزيون المفتوح كغالبية الشعب الأمريكى، كنت أحلم ليل نهار باللحظة التى أرى فيها زوجتى وأولادى.

وعدت..

هى تقول عن الزواج إنه عملية درران فى ساقية، وهى محقة فى ذلك، فقط أضفت تعديلاً بسيطاً، «أنا الذى أجر هذه الساقية».

ابنتى تريد أن تعرف

قلبت الأمر على كل وجوهه عدة مرات، فكرت فى عشرات الحلول، طرحت على نفسى مئات الأسئلة، وفى النهاية كانت هناك إجابة واحدة مؤلمة وبغيضة: الطلاق.

- وابنتك...؟

- ابنتى ستحصل على كل احتياجاتها، سأشاهدها مرة كل أسبوع، هناك أولاد يراهم آباؤهم مرة واحدة فى كل عام، من الأفضل لابنتى أن تبدأ فى التعرف على حقائق الحياة المؤلمة، من الأفضل لها ألا تحيا بصحبة أب تعس وأم تعسة وحياة تظللها المرارة والفتور، من المؤكد أنها تتألم الآن وبالقسط سيزداد ألمها بعد أن أترك المنزل، ولكنها - بالطبع - سوف تتقبل المسألة كأمر واقع بعد شهور، وهى ليست صغيرة، لقد تعدت العاشرة بشهور، وعلى كل حال، لست الإنسان الوحيد الذى يترك

ابنه أو ابنته بحثاً عن راحته الشخصية اللازمة والضرورية لعمله، فأنا مهندس تصميمات وعملى يتطلب كفاءة عقلية وذهناً صافياً أشعر بأننى لم أعد أمتنع بهما . وذلك بسبب الجو الكئيب المعذب الذى يحيطنى فى بيتى .

لا تسألونى عن الأسباب بالتفصيل . فلست أريد الدفاع عن نفسى ولا عن القرار الذى قررت اتخاذه ، إننا مختلفان فى كل شىء ، هل سمعتم عن الشريك المخالف .. ؟ عندما أقول ما أجمل الشمس عندما تشرق ، تتحدث عن الحزن الذى تشعر به فى لحظات الغروب .. عندما يسعدنى نسيم الشمال ، فلا بد أن تزعجها فى اللحظة نفسها رياح الجنوب .

كما أننى أيضاً لا أريد اتهام زوجتى بشىء ، فهى أسيرة لتركيبه نفسية لا يد لها فيها ولا حيلة ، لقد نشأت فى منزل ملئ بالصرامة والقسوة مما جعلها يائسة من احتمال أن تقابل السعادة يوماً ما .. ولا حتى عن طريق الصدفة بل أصبحت تتفادى كل ما يمكن أن يكون سبباً للبهجة ،

- مرة أخرى .. وابنتك ؟

إنه لمن أبلغ آيات القسوة أن تطالبونى بأن أموت كمدماً من أجل أن تسعد ابنتى . بعد سنوات قليلة سوف تتركز وتعيش مع رجل آخر سوف يصبح كل شىء بالنسبة لها ، ومن يعرف ؟ هل ستزورنى فى الأعياد والمناسبات أم تكتفى بالسؤال عنى فى التليفون .

قررت أن تتم المسألة فى هدوء، اشتريت شقة صغيرة فى حى بعيد ووضعت فيها أقل القليل من قطع الأثاث، لن آخذ ملابسى، سأتركها، فقط أخذت بعض الأوراق والمستندات الهامة ووضعتها فى حقيبة جلدية صغيرة.. سوف أقوم بالتنفيذ الآن.. ليساعدنى الله.

جلست مع ابنتى فى غرفة المعيشة، كانت ابنتى تجلس على ركبتى تشاهد برنامج الكارتون فى التلفزيون وتضحك، لن أضعف، لو ضعفت الآن فسأدفع عمرى كله ثمناً للحظة الضعف هذه بمجرد انتهاء برنامج الأطفال، سوف أقبلها وأغادر البيت.. إلى الأبد هذه المرة.

انتهى برنامج الأطفال وجاءت نشرة الأخبار. كانت الفقرة الأولى عن الأرض المحتلة.. فاجأتنى ابنتى بسؤال: متى تم احتلال هذه الأرض؟.. ومن احتلها؟.. وكيف؟.. ولماذا؟

أنزلتها من فوق ركبتى مستعداً للانصراف: ستعرفين فى المدرسة يا حبيبتى.. فى العام القادم.. أو العام الذى يليه.

لغت ذراعيها حول رقبتي وقالت: لن أتركك إلا بعد أن تقول.. لماذا تريدنى أن انتظر عدة أعوام لكى أعرف.. أريد أن أعرف منك.. الآن. حقاً.. لماذا تنتظر لتعرف فيما بعد..؟ هى تريد أن تعرف الآن. أجزاء مظلمة فى عقلى بدأت تضىء، إننى لست مجرد أب لهذه الإنسانية الصغيرة، إننى مصدر المعرفة الرئيسى لها، بنك المعلومات التى وضعت فيه رصيدها من المعرفة ومن حقها أن تسحب منه وقتما

تشاء، بنك للمعرفة والمعلومات تماماً كما أنا بنك للأبوة والحنان، إننى أعرف جيداً من قراءتى للتاريخ أن الأجيال التى تكف عن إعطاء المعرفة للأجيال التالية بدافع من التعاسة أو اليأس أو اللامبالاة، تحكم على نفسها بالعزلة التى تسلمها للاندثار، وما تعرفه ابنتى لابد أن يكون له تداداً لما أعرفه أنا دون أن يشكل ذلك قيداً على عقلها وتكوينها الفردى.. ومصادر المعرفة الحقبة «يجب» أن تكون كالأبار القريبة نهل منها عندما نشاء وإلا فإنها تصبح مصدراً للعذاب.

«يجب» ..

آه من كلمة يجب هذه .. ترى.. من أين تنبع قوة الإلزام الخلقى بداخل الإنسان .. من أين اكتسبت كلمة يجب هذه كل قداساتها؟ ..

أعدت أوراقى ومستنداتى لأماكنها وارتديت جلبابى وواصلت شرح تاريخ المنطقة لابنتى.. مع الأيام، اكتشفت شيئاً جديداً تماماً.. لقد حولت ابنتى لبنك فتحت فيه حساباً جديداً، أخذت أودع فيه كل ما أستطيع من الود والحنان والاهتمام والمعرفة، وبعد سنوات طويلة، فى شيخوختى سوف أسحب من هذا الرصيد.

هل مازلت تتعذب؟.. نعم. ولكن أصبح لعذابى طعم جميل.. حزنى أصبح دافعاً للإبداع فى عملى.. أكثر من ذلك، بدأت اكتشف فى زوجتى مزايا لم أكن أراها من قبل.. لقد اكتشفت مثلاً أنها.. عفواً.. لماذا لا نترك ذلك لاعتراف آخر..؟

سر الابتسامة الساحرة

بعض الرجال يكتسبون سحراً خاصاً بعد سن الخمسين. أعتقد أنني أنتمى لهذا البعض. وهذا هو أيضاً تفسيري لتلك الابتسامة العذبة المائلة بالنداء والتي ترسم على وجه السيدة البدينة الجميلة التي تجلس في النادي بجوار حمام السباحة.

لم تكن المرة الأولى التي نصوب فيها هذه السيدة ابتسامتها نحوي في إصرار، بل كانت المرة العشرين خلال هذا الأسبوع، نسيت أن أكلّمكم عن نفسي، أنا رئيس الشؤون القانونية في مصلحة حكومية هامة، انشغالي الدائم بالقانون والقضايا والمحاكم اكسبني ملامح جادة وصارمة وأضفى على سمة من ثقل الظل تنفر منى عادة الجنس اللطيف، لذلك مر عمري كله دون مغامرة نسائية واحدة مكثفاً بسماع قصص مغامرات زملائي.

وحفيظة لست أدري أى شيطان خبيث جعلنى هذه المرة أرد على ابتسامه هذه السيدة بابتسامه مشجعة قامت على إثرها من مكانها واقتربت تنهذى لتجلس على مقعد بجوارى، وبدأت تتحدث. استولى على صوتها الرقيق الجميل الأخاذ وهى تحكى عن شعورها المرير بالوحدة وبالضيق فى هذه الغابة الكبيرة التى تسمى الحياة. كانت واقعة فى مشكلة قانونية كبيرة بسبب أخوتها الذين يريدون الاستيلاء على أملاكها، بعد ربع ساعة بالضبط كانت تقود سيارتها الفارهة وأنا بجوارها فى طريقنا لفيلاتها لتعرض على كل الوثائق والمستندات الخاصة بالقضية لكى أقول لها رأى القانونى فى مشكلتها.

بعد نصف ساعة كنت أجلس فى بهو الفيلا المنعزلة التى تعيش فيها بمفردها، حتى الشغالة تأمرت ضدها وتركتها. كنا وحدنا فى الفيلا البعيدة المنعزلة الواقعة وسط الحقول وهو جو يسمح بالفعل لدراسة المستندات والوثائق بهدوء وروية. تركتني جالساً وذهبت لإحضار المستندات. مرت عشر دقائق طويلة ثقيلة قبل أن تظهر نازلة السلم، لم يكن معها مستندات ولا وثائق، لقد تحولت هى نفسها إلى وثيقة بشرية ترتدى ثياباً من النوع الذى ترتديه بطلات الأفلام التى يكتب على إعلاناتها جملة (للكتاب فقط).

استولى على إحساس بالخوف لم أعرف مصدره، بدأ العرق البارد يتجمع على جبينى فى اللحظة التى جلست فيها إلى جوارى، همست وأنا أرتجف: أين المستندات؟

ما حدث بعد ذلك. حدث بسرعة يصعب تصورها، فوجئت بلطمة هائلة على وجهي وصوت أجش يصيح: مستندات إيه يابن الـ .. هيا ادخلي غرفتك يا بنت الـ ..

انفتحت كل أبواب الجحيم.. تقذف على حمما من الركلات والصفعات، كانوا ثلاثة رجال من المحترفين الأشداء يجيدون صنعتهم تماماً.

أخيراً وبعد لحظات كأنها قرون وجدت نفسي في العراء بين الحقول بدون محفظتي وبدون ساعتى الثمينة، حتى الفلوس الفكة التى كانت فى جيوبى أخذها الأندال.

وصلت منزلى عند الفجر، عندما فتحت لى زوجتى الباب همست فى فرع: مالك..؟ أين كنت..؟ ماذا حدث لك؟..

كان لابد من كذبة هائلة الحجم جيدة الصنع، محبوكة تفسر الكدمات التى تنتشر على وجهي وفى جسمي كله، بالإضافة إلى ثيابي الممزقة. أخذت أتحدث بصوت متهدج: تعرفين أننى كنت معتقلاً منذ أعوام طويلة بسبب آرائى السياسية وتعرفين أننى تعرضت للتعذيب فى المعتقل، لقد أقسمت منذ ذلك الوقت أن أنتقم من معذبي يوماً ما.. مهما كانت الظروف، لقد كان قائد المعتقل بنفسه هو الذى يقوم بتعذيبى، واليوم وجدتنى وجهاً لوجه فجأة أمامه فى الشارع، لم أشعر بنفسى إلا وأنا أهرج عليه كالوحش الهائج، دارت بيننا معركة فظيعة، تجمع الناس

حولنا، توقفت حركة المرور، ولكنى لم أتركه إلا بعد أن حطمت ضلوعه وجعلت الدماء تنزف من كل مكان فى جسده كالنافورة. فحملته سيارة الإسعاف بينما تمكنت من الإفلات، فى الغالب لن يصل حياً إلى المستشفى. غير أننى للأسف فقدت محفظتى وبها أوراقى وساعتى أثناء المعركة..

طبيب زوجتى خاطرى وأثنت على شجاعتى وأحضرت بعض الثلج والمرامح لتعالج كدماتى وإصاباتى.

رقدت فى الفراش يومين، وفى الصباح اليوم الثالث أحسست بأننى قد استرددت عافيتى فطلبت طعام الفطور فى الفراش ومعه جرائد الصباح، وفى صفحة الحوادث قرأت بالخط العريض ما يلى: «القبض على عصابة تستدرج الشخصيات الهامة من نادى (...) ثم الوصف التفصيلى للتكتيك الذى تتبعه العصابة، كانت الطريقة سهلة وبسيطة، وحاسمة للغاية.. تبسم السيدة فتقع الضحية فى الفخ، وفى الفيلا البعيدة، يظهر الرجال الثلاثة. وبالطبع الضحايا لن تجرؤ على إبلاغ الشرطة، ترى، من هو ذلك الرجل الشجاع الذى أبلغ عن العصابة، بالتأكيد هو رجل أعزب.. تضمن الخبر أيضاً نداء من الشرطة لضحايا العصابة للتوجه لقسم الشرطة لكى يأخذوا متعلقاتهم من أوراق بالإضافة لبطاقات هوياتهم التى وجدتتها الشرطة فى الفيلا.. بعد أن قرأت الخبر طويت الصحيفة وخبأتها تحت السرير.

فوجئت بزوجتى مرتدية ثياب الخروج.. قلت لها: ستتركيننى وأنا
فى حالتى هذه ؟

ردت بهدوء: .. لن أغيب.. أنلى ذاهبة لإحضار حافظة نقودك..
بالطبع لن يجدوا بها النقود.. ولكن كل الأوراق التى بداخلها هامة..
أرجو أن أجد الساعة أيضاً.

أغمضت عيني وأنا أشعر بالخجل يسحقنى.. ومنذ ذلك اليوم
أصبحت أكثر عن أنيابى فى مواجهة أى ابتسامة تصوبها ناحيتى أى
امرأة، حتى لو كنت أشاهد فيلماً وابتسمت بطلته.

زُوجَتِي هِيَ الْحُكُومَةُ

أنا كاتب كبير، وكبار الكتاب في شرفنا العربي يكتسبون هذا اللقب غالباً بفعل الزمن والتقدم وليس بسبب عظمة ما يكتبونه، هذا هو قدرنا، نبدأ موهوبين كباراً لا يعرفنا أحد وننتهي صغاراً متأكلي الموهبة يعرفنا كل الناس ونحظى بالاحترام والتكريم والجوائز والأوسمة في كل مناسبة وغالباً بغير مناسبة.

نعم: أنا كاتب كبير أطل بوجهي على المتفرجين في قنوات التليفزيون، وأطل بصوتي على مستمعي الإذاعة وأطل بقلمی على القراء في عدة صحف وعدة مجلات. هذه هي المحصلة النهائية لسنوات طويلة تعلمت خلالها أن أطلی حديثی بطلاء مفتعل من الشجاعة الفكرية، وأن أقول كل ما هو قديم بشكل يبدو جديداً، وأن ألعب على كل الحبال ببراعة تفوق براعة لاعب «الترابيز» في السيرك، وأن أبدو في كل الأحوال لامعاً ومبهراً وحكيماً.

باختصار، لقد خنت موهبتى فى رحلتى الطويلة شيئاً فشيئاً فخانتنى شيئاً فشيئاً. والسبب.. زوجتى. أو بمعنى أدق، زواجى من زوجتى.

لقد أدركت منذ زمن بعيد أن الكاتب الذى يشق طريقه مستعيناً بموهبته وحدها، هو كاتب ساذج يتجاهل حقائق هذا العصر، وحقيقة الحقائق فى العالم الثالث وأكثرها نصوعاً ووضوحاً، هى السلطة، السلطة هى القمة، هى القلعة الحصينة التى لا يصل إليها أعداؤك. والتى ينكسر حول أسوارها حسادك والحاقدون ويسقطون حولها جثثاً هامدة بلا قتال. لم يحتج الأمر إلى تفكير للوصول لقرارى الحاسم.

ليس بالدفاع عن السلطة بالحق وبالباطل، أو بالتطويل لها إذا أصابت أو أخطأت، فهذه أشكال غبية ومفضوحة من أشكال «الانضمام، ما أريده وما سأفعله هو أن أكون منها، أن أستولى عليها من الداخل تطبيقاً لقاعدة قديمة فى القتال، أن أفضل طريقة لاحتلال موقع هى أن تستولى عليه من الداخل.

كنت معيداً فى كلية الآداب فى ذلك الوقت، وكانت بعض الجرائد والمجلات تنشر لى قصصاً فى أوقات متباعدة، وكانت هى تعمل مدرسة وتكبرنى بسبعة أعوام، لم تكن جميلة أو متميزة، ولكنها كانت الأبنة الوحيدة لرجل من أهم رجال السلطة فى مجال الثقافة والإعلام. (فيما بعد قالت جرائد المعارضة إنها لا تضلح للتدريس فى مدرسة ابتدائية وهو قول قاس وإن كان صحيحاً) .. أحببتها، ولا تظنوا أنى

تظاهرت بحبها، لقد أحببتها بالفعل، حباً قوياً ملك على مشاعري، أصبحت فكرة زواجى منها هى الهدف الأسمى لحياتى (عرفت فيما بعد أنها كانت تخطط للزواج منى) ... وتزوجتها ... ومن الغريب أن زواجى منها كان بداية لسلسلة من الزيجات فى الوسط الصحفى والثقافى من النوع نفسه، كثيرون من أبناء جيلى ساروا على الدرب نفسه ليظفروا بالحماية اللازمة لمواهبهم.

اتضح للجميع بعد زواجى بأن موهبتى أكبر حجماً مما قدرها فى البداية، بدأ الجميع يطلبون قصصى ومقالاتى، انهالت على الدعوات والسفرىات للخارج وعضوية اللجان والمؤتمرات، انهالت على الفلوس أيضاً.. الدنيا كلها أقبلت على بوجه باش بعد طول عبوس.

شيئان فقط كانا يبتعدان عنى، موهبتى، وشجاعتى العقلية.. تاهت منى الحقيقة، ولم أعد أرى إلا ما يراه أهل زوجتى الأعزاء، الذين يعملون جميعاً فى الحكومة.

أشهد بأن أحداً من رجال السلطة لم يطلب منى يوماً أن أكتب كذا أو أن أمتنع عن كتابة كيت. ذلك لأنهم جميعاً تركوا المسألة لحصافتى وحسن تقديرى. ولقد كنت بالفعل حصيفاً حسن التقدير.

وفى المرات القليلة النادرة التى كنت فيها صادقاً وشجاعاً ومحددأ فى كلماتى.. كانت تكثيرة زوجتى وأقاربها تردنى إلى صوابى وترد صوابى إلى. هكذا تم تطويعى حتى تحولت لكاتب كبير قولاً لا فعلاً. عندما أهاجم فإن هجومى ينصب على كائن هلامى اسمه التسيب أو

الإهمال أو الجهل أو هؤلاء الذين يريدون العودة بنا إلى ظلام الماضى أو هؤلاء الذين يريدون القذف بنا إلى الأمام فى ظلام المستقبل بخطوات مغامرة غير محسوبة.

أما عندما أمدح، فإننى أمدح أشخاصاً محددين وأشياء محددة،
ويقفز سؤال:

- هل كنت سعيداً مع زوجتى؟

بصراحة، لم يكن لدى الوقت الكافى لأسأل نفسى هذا السؤال، كنت مشغولاً طول الوقت بإرضاء رؤسائى، أعمل ليل نهار وقد نسيت راحتى الشخصية تماماً، إلى أن جاء الوقت الذى اكتشفت فيه أننى كنت أكثر الناس تعاسة على ظهر هذا الكوكب، حدث انقلاب أطاح بالحكومة كلها، بكل أقارب زوجتى.

وجاءتنى مكاملة تليفونية من مسئول جديد يطلب منى أن أغادر مكتب الجريدة التى أراس تحريرها إلى المنزل لحين صدور أوامر أخرى.

جلست فى المنزل هادئاً، أعاننى الهدوء على رؤية زوجتى على حقيقتها بعد عشرين عاماً من الزواج، لم تكن جميلة، ولم تكن متميزة، كانت كئيبة.

طلقتها، وعلى الفور بدأت كتابة سلسلة مقالات عنيفة نارية تفصح
العهد البائد وأرسلتها لمكتب مسئول كبير يشرف على الصحافة.

اتصلت بى مديرة مكتبه وحددت لى موعداً لمقابلته، قال لى
المسئول:

نحن نعرف أنك لست منهم ونعرف أنك كاتب منحاز للشعب، عد
لصحيفتك، عد لتدافع عن الشعب (أحياناً فى بلادى يطلقون اسم
الشعب على الحكومة) مديرة مكتبى ستتصل بك لتبلغك كل ظروفنا
الجديدة (يقصد لى تبلى عنى بكل التعليمات الجديدة) ... لاشك أن
التعاون بيننا سيكون مثمراً.. فكلانا منحاز للشعب..

وماذا حدث بعد ذلك؟

لاشئ.

تزوجت من مديرة مكتبه.

ليس لأحمى موهبتى هذه المرة. لقد خسرتها للأبد. ولكن لأحمى
نفسى شخصياً.

من يدري؟

ترى ماذا يفعلون بى إذا لم أتزوج منهم.

هى فى غرفة الصالون

اجتمعت اللجنة المركزية لعائلى وأصدرت قراراً بأن أتزوج قبل أن أسافر للحصول على الدكتوراه . كان قراراً حاسماً لا رجعة فيه . وذلك لكى يضمنوا بشكل مؤكد ألا أقع فى غرام إحدى فتيات العم سام . وكأن المنطقة - بزواجى من أمريكية - ستفقد واحداً من أهم رجالاتها ، وافقت بعد أن قررت ببلى وبين نفسى أن أرفض كل فتاة يرشحونها لى .

أعلنت حالة الطوارئ فى كل فروع عائلتى فى طول البلاد وعرضها ، تحول أفرادها إلى جهاز كبير منتشر للبحث والتحري ، تحولوا جميعاً إلى مخبرين يجمعون المعلومات عن فتيات الأسر التى يرون أنهم صالحات للزواج .

كونوا مجموعة عمل تعد كشوفاً بأسماء وعناوين الأسر وبمواعيد «الفرجة» .. الفرجة على العروس ، ثم شكلوا بعثة شرف ترافقنى

لمساعدتى على الاختيار. وروعى فى اختيار أفراد بعثة الشرف هذه أن يكونوا من أصحاب المناصب العالية والنُفوذ فى عائلتى، ذلك لإحداث أكبر قدر من التأثير فى قلب الأعداء - أهل العروس - وإقناعهم بأن الحظ قد ابتسم لهم أخيراً بهبوط هذا العريس اللقطة، الذى هو أنا بالطبع. بالفعل، أحرزت بعثة الشرف نجاحاً كبيراً، فكل الأسر التى زرتها كانت تقع فريسة الإعجاب الشديد إلى حد الفزع عندما كان كل فرد من المرافقين لى يكشف عن منصبه أو عن مركزه. أخذنا ننقل من أسرة إلى أسرة، أقصد من غرفة صالون إلى غرفة صالون، وأنا بطبيعتى أكره غرف الصالون، إنها تحتم على أن أجلس متحفظاً للغاية، مبتسماً ابتسامات لا معنى لها وأسمع من الآخرين - ومنى أنا نفسى - كلمات لا معنى لها.

ولكثرة ما جلست فى حجرات الصالون، أصبحت خبيراً بأشكالها وطرزها. كما بدأت معدتى تختل لكثرة ما شريت من مشروبات لدى هذه الأسر التى نزورها. وبعد كل زيارة كانت أعين أعضاء بعثة الشرف تتعلق بشفتى منتظرة كلمة واحدة: موافق.

غير أنلى فى كل مرة كنت أرفض وأتعطل بحجج متنوعة .. متوسطة الجمال، وحرف الفاء عندها غير واضح، تعتنى بأظافرها جداً وهذا معناه أنها لن تدخل المطبخ، بديلة جداً، نحيلة جداً، سمراء جداً.. كل شيء فيها معقول لولا أنها سمراء جداً.. أه لو كانت أقل سمرة ..

بيضاء جداً.. لا أحب هذا البياض الشاهق.. أما هذه فهي ممتازة فعلاً، ومن النوع الذى يعجبني، ولكن ليثها كانت خميرية اللون.. أو حتى قمحية.

ولم تياس اللجنة، استمرت فى عملها فى إصرار، فلقد كان موعد سفرى يقترب، إلى أن قابلتها، كانت الوحيدة التى أعجبتنى بالفعل، كان يشع من عينيها سحر خاص، هادئة، ليست صارخة الجمال ولكن تقاطيعها مريحة جداً، وحدثت المفاجأة التى وقعت على أعضاء بعثة الشرف وقّع الصاعقة، رفضتنى.

كانت الوحيدة التى أعجبتنى فى كل هذه الزيارات الميدانية وكانت الوحيدة التى رفضتنى، غلى الدم فى عروق بعثة الشرف للإهانة التى لحقت بهم واستنكروا بشدة قولى بأننى إذا تزوجت فلن أتزوج إلا هذه الفتاة. وقفت خطيباً فيهم وأخذت أشرح لهم وجهة نظرى: يا سادتى.. هذه الفتاة ليست متعلقة بشخص آخر.. بدليل أنها جاءت لترانى فى غرفة الصالون، كما أنه من المستبعد تماماً أن تكون لها علاقات فكرية عاطفية بالاتحاد السوفيتى تدفعها لعدم التعاطف مع فكرة السفر لأمريكا.. أما افتراض أنها لم تعجب بى.. فهو فرض مستحيل استبعده تماماً.. وأستطيع أن أجزم بأنها معجبة بى ولكنها رفضتنى بسبب لا يخطر لکم على بال.. السبب يا سادة هو التأثير السيئ الذى يحدثه الجلوس فى غرفة الصالون بين غرياء كل منهم تحولت عيناه إلى

طائرة استكشاف تحلق حول الفتاة وفوقها، هذه فتاة حساسة جداً وممتلئة بالكبرياء، وهذا ما أريده في زوجة المستقبل.. دعوني أعمل وحدي، إنني أطلب منكم أن تجمدوا عمل اللجنة مؤقتاً وأن تعطوني الفرصة للعمل بمفردي.. أنا الذي سأ تزوج وليس أنتم.. لا بد من اللجوء لتكتيك آخر لمحاصرة العدو وتطويره ثم اختراقه من أضعف نقطة فيه ثم الاستيلاء عليه في النهاية والزواج منه، أقصد منها، من العروس.

وافقت بعثة الشرف على ممرض وطالبتني بعرض خطتي الجديدة عليهم ولكنني رفضت.

ذهبت لمنزلها مرتدياً قميصاً وبنطلوناً عاديين، ضغطت الجرس، رحبت بي الأم في تحفظ، ودعتني للجلوس في غرفة الصالون ولكنني رفضت وطلبت الجلوس في غرفة المعيشة.

قال لي الأب وأنا أحتسى معه القهوة : أنا شخصياً أرى أنك شخص ممتاز.. وهذا رأي والدتها أيضاً.. ولكننا عودناها على أن تتحمل وحدها مسؤولية القرار الذي تتخذه.

عدد ذلك قلت: لم آت لكي أطلب منكم الضغط عليها، كما لم آت لكي أطلب منها تغيير موقفها لقد جئت لأعتذر لها.

- ليس هناك موجب للاعتذار.. الزواج قسمة ونصيب.

- بالفعل .. لكنني أخطأت.. وأعرف خطئي.. وهي أيضاً تعرف خطئي .. لذلك يجب أن أعتذر لها شخصياً.

وجاءت هي ونظراتها مليئة بالتحدي المؤدب، سلمت على في فتور وجلست قلقة. قلت لها: إننى أعتذر يا آنسة عن الحرج الذى سببته لك .. أنا أيضاً لا أوافق على الزواج بهذه الطريقة .. طريقة الفرجة فى غرفة الصالون .. إن الطريقة التى قدمتنى بها أسرتنى تنفر الفتيات ذوات العقل الراجح .. لقد كان الحديث كله عن البعثة والسفر والحياة المريحة التى ستحيها معنى الزوجة فى البعثة .. وكأن الزوجة من مستلزمات السفر .. جزء من حاجيات المسافرين .. إننى أريد الزواج فعلاً بغض النظر عن البعثة .. أريد زوجة ذكية .. جميلة ومن أسرة طيبة كريمة .. وأنا واثق أن هذه المواصفات تتوافر فيك .. أريد زوجة أتمكن معها من مواجهة الدنيا والتغلب على متاعبها وصعوباتها .. ولكنى سيئ الحظ .. لأن الإنسان الذى ترفضيكه أنت .. هو بالقطع، إنسان سيئ الحظ.

خف توترها، لانت ملامحها وابتسمت فى حياء وقد كست وجهها حمرة جميلة.

أستأذنتها لأنصرف فطلبت منى الأم أن أبقى لتناول العشاء وانسحبت لتعده فى المطبخ، وانسحب الأب ليجرى مكالمة طويلة جداً. وعندما عادوا.

كنا نتحدث معاً .. نخطط للسفر ..

لقد رفضتنى فى غرفة الصالون، ولكنها وافقت على فى غرفة المعيشة.

زوجتى . . . وآلام البشر

بعض الرجال فى هذا العالم محظوظون .. منهم من استطاع أن يكون ثروة كبيرة، منهم من حصل مجداً أدبياً وسياسياً أو فنياً عريضاً. أما أنا فمن الممكن اعتبارى أكثر الرجال حظاً، فقد حققت - بفضل الله - قدراً معقولاً من المال يتيح لى حياة كريمة، وحققت أيضاً فى عملى نجاحاً يخسدى البعض عليه، وبالإضافة لكل ذلك - وهذا هو المهم - فقد رزقنى الله بزوجة طيبة، رقيقة، عظوف، فائقة الحساسية والإنسانية.

خطبتها لى أُمى بالطريقة التقليدية بعد فشل مرير لقصة حب طويلة انتهت إلى لا شئ. أسلمتنى لحالة من اليأس واللامبالاة وجعلتنى فى النهاية أَرْضَى بأن أتزوج بالطريقة التى تزوج بها أجدادى.

بعد جلسة واحدة مع خطيبتى، اقترعت، بل وآمنت أننى - بمحض الصدفة - قد وفقت إلى المرأة الكثر كما تصفها الحواذيت والأساطير والتى يحلم بها أى رجل.

جميلة، رشيقة، جادة، تتكلم بلا تكلف أو تصنع فى صوت رقيق عذب خافت. ترتدى ملابس بسيطة رائعة الذوق، فهمها للاتجاهات السياسية لا يقل عن فهمها لكل المدارس الفلسفية القديمة والوسيلة والمعاصرة، حجة فى التاريخ، موسوعة فى الموسيقى، تجيد الطهر.. صنع كلمة تجيد واكتب بجواها أى كلمة أخرى لكل ما هو جميل ومفيد فى هذا العالم، ستحصل فى النهاية على وصف دقيق لزوجتى.

سوف تقولون، يا بختك..

نعم. يا بختى. لكن المثل الشعبى يقول «الحلو لا يكتمل، انتظرو قليلاً حتى أكمل اعترافى، فى أسبوعين فقط انتهيت من إعداد (قيلقتنا) الأنيقة التى ساهمت فى تهيئتها بلمساتها الحانية، حتى الحديقة، فوجئت بها توجه «الحدائقى، وتعطيه إرشاداتها بطريقة تؤكد فهمها العميق للزراعة وتنسيق الحدائق. من المؤكد أننى حتى الآن قد تزوجت من حورية جاءت من الجنة متلكرة فى هيئة البشر.

وفى رحلة شهر العسل، تبينت عيبها الأساسى الواحد والوحيد، كانت تنفعل بقوة بآلام الآخرين، وتشعر بمسئولية كبيرة تجاه البشر فى كل مكان.

وهل هذا عيب يا رجل؟ ألن تكفوا عن الأفتراء على النساء يا معشر الرجال..؟

انتظروا قليلاً واستمعوا جيداً لاعترافى.

هل تعرفون مطعم «ماكسيم» فى باريس .. ؟ بالتأكيد أنتم تسمعون عنه كما كنت أسمع وأقرأ عنه طوال عمرى، اصطحبتُها إلى هناك لننعم بعشاء فخم نظل نذكره فى قادم الأيام والسنين، وفى ذلك المطعم الفخم، كتيبة كاملة من الجارسونات والسفرجية جاءت ترصع مائدتنا بشهى الأطباق وبأصناف الطعام الفخم التى لم أعرفها من قبل والتى لم أكن اتخيل وجودها. بداية طيبة لشهر عسل لذيد. أليس كذلك؟ ..

لا.. لم يكن الأمر كذلك ..

فوجئت بسحابة من الكآبة تلو وجهها وهى تنظر بشرود لأطباق الطعام.

- مالك يا حبيبتي ..؟

- لا .. لاشئ .. فقط كنت أفكر فى أطفال إفريقيا الذين يموتون جوعاً فى كل لحظة .. إن العالم اليوم تنقصه روح الأخوة الحقيقية .. هم فى النهاية بشر، وإخوة لنا ..

رسمت على وجهى مسحة حزينة وجادة وقلت لها مواسياً : يا حبيبتي .. إن العالم كله يرسل لهم الطائرات الضخمة محملة بالأغذية كل يوم، ولقد قرأت هذا الصباح عن رجل كندى تبرع لهم بمزرعته الكبيرة، سيبيعها ويعطيهم ثمنها .. الناس فى العالم كله متعاطفون معهم.

قالت برقة وهى تنظر للطعام فى حزن: وماذا فعلنا نحن .. ؟ أنا وأنت ..؟ ماذا فعلنا من أجلهم؟ .. أرجو ألا أفقدك شهيتك بهذا

الحديث.. وأنا آسفة لخوضى فى هذا الموضوع فى هذه اللحظات لكنك سألتنى، وأنا لا أريد أن أخفى عنك ما أفكر فيه.

- طبعاً يا حبيبتى طبعاً.. وأنا أيضاً أقدر لك إحساسك بالآلام الآخرين.. ولكن جربى هذه الشورية، ذوقى هذه السلطة الرائعة، ما رأيك فى هذا الكافيار المدهش؟

اغتصبت ابتسامة شاحبة وأخذت تأكل بضع لقيمات بدافع من المجاملة وبشكل لا استمتاع فيه. أنا أيضاً فقدت شهيتى للأكل، ورفع الجرسونات - وقد أكفهرت وجوههم - الأطباق وعادوا بها كما هى. وكأن لم يمسسها بشر.

اقترب منى رئيس الجرسونات بوجه ممتقع، انحنى فى أدب وهمس فى أذنى: سيدى، من المعروف فى هذا المطعم العريق أن الأطباق التى تخرج للزبائن تعود ممسوحة تماماً.. هذه هى المرة الأولى فى تاريخ هذا المطعم التى تخرج فيها هذه الأطباق وتعود للمطبخ كما هى.. لقد أصيب رئيس الطباخين بانهايار عصبى، ومدير المطعم ينتظرك فى مكتبه لكى تقدم له تفسيراً لما حدث.. إن ما حدث منكما يا سيدى من الممكن أن يصيب السياحة فى فرنسا: بأثار بالغة الخطورة، و... و...

بفرنسىتى الضعيفة، قضيت ساعتين أحاول إقناع مدير المطعم بأن العيب يكمن فىنا نحن وليس فى طعامه، وفى النهاية كتب محضراً بالواقعة فى حضور مسئول السياحة فى باريس ووقعت عليه أنا وزوجتى لكى يؤمن موقف المطعم ويحمى سمعته فى حالة تسرب الخبر

للصحافة . خرجنا من المطعم فى تلك الليلة وأنا أكاد أموت جوعاً ،
أوصلتها للأوتيل ونزلت إلى الحى اللاتينى على الفور لأشترى سندوتشاً
مغربياً مليئاً بالشطة وبأنواع أخرى من المتفجرات ، وقضيت ليلة سوداء
فى عاصمة النور تورقنى فيها الكوابيس وآلام المعدة وحرقان الغليظ ،
وإليك قصة أخرى : فى قرية سويسرية ترفد فى أحضان الجبال
الثلجية ، وفى فندق قديم جميل ، جلسنا فى بهو الفندق بجوار المدفأة
نستمع لموسيقى موزار الشجية ، تطلعت إليها فوجدتها تنظر بشروء
لنيران المدفأة وقد أغرورقت عيناها بالدموع التى مالبثت أن بدأت
تسيل على وجنتيها .

– ماذا بك يا حبيبتي .. ماذا يؤلمك ؟..

ردت بصوتها الملى بالرقّة والعطف : لا شئ .. أرجوك لا تسألنى
.. لا أريد أن أفسد استمتاعك بهذه اللحظات الجميلة .

– أرجوك يا حبيبتي .. دعينى أشاركك فى أحزانك .. لماذا تبكين ؟

أجابت : هذا الدفء .. هذا الجمال .. كم من البشر على ظهر هذا
الكركب يبحثون عنه ولا يجدونه .. كم من البشر الآن يرتعدون من
البرد ، وكم منهم تعذبهم حياتهم التسة .

قلت لها وأنا أتناوب :

– كثيرون يا حبيبتي .. كثيرون ، من الأفضل أن ننهض الآن لننام

مبكراً .. لقد قررت أن أقطع شهر العسل وأن تسافر في صباح الغد ..
لا بد أن أعود لعملي فوراً.

صاحت بدهشة : لماذا يا حبيبي ..؟

- بصراحة، تعذبني فكرة أن الآخرين يعملون وأنا هنا أستمتع
بالحياة فقط، كم من البشر يعملون الآن في المناجم والمصانع، يكدون
ويكدحون ويشقون بينما أنا هنا أستمتع بحياتي وبالدنيا فقط ولا أقدم
للشئ أى شئ مفيد .. أصارحك القول، لقد استيقظ ضميرى أخيراً
بفضلك .. لقد قررت قراراً لا رجعة فيه ألا أستمتع بأى شئ.

ومن يومها، لم تحدثنى عن آلام البشر.

الاعتراف الرهيب

ما هو الاعتراف؟

فى تصورى الشخصى، الاعتراف هو عملية فصد نفسية وعصبية، يتخلص بها الإنسان من الأحمال الزائدة عن درجة تحمل جهازه العصبى والنفسى وذلك بإلقائها على الآخرين. لا يجب بالطبع أن يلقيها فوق رؤوسهم أو على أكتافهم، ولكن عليه أن يلقيها تحت أقدامهم ليعاينوها جيداً. فتبصرهم بمنعطفات ومنحدرات الطريق الإنسانى اللانهائى وتجعلهم أكثر حكمة وأكثر خبرة.

الأصل إذن فى الاعتراف هو التخلص من الحقائق المرة المعذبة من أجل الحصول على الراحة النفسية وليس من أجل كشف الحقائق فى حد ذاتها.

إذ طبقنا هذه القاعدة على عدد كبير من اعترافات الأزواج السابقين استطعنا أن نقول باطمئنان إنها ليست اعترافات، إنها حكايات وهى أيضاً حيل نفسية جبانة للهروب من الاعتراف الحقيقى.

وهذا النوع من الاعترافات يفتقر للشجاعة اللازمة بالرغم من أن إدارة التحرير - رغبة منها في حماية الأزواج المعترفين - لا تنشر أسماءهم. ومع ذلك فمن الواضح أن رعبهم من زوجاتهم يجعلهم لا يطمنون لهذه المسألة. ولعلمهم أيضاً يعتقدون أن لزوجة كل منهم عميلاً أو مخبراً داخل أسرة التحرير، سوف يقوم بالإبلاغ عن وقائع اعترافاتهم.

لذلك نجدهم يحرصون في اعترافاتهم على النهاية السعيدة المفبركة تماماً كالأفلام المصرية.

إننا - أزواجاً وزوجات - لو عاملنا هذه الاعترافات بصدق حقيقى وشجاعة، لتمكنا بذلك من إنقاذ آلاف الزوجات الفاشلة والبيوت المنهارة ولقضيها على آلاف من العلاقات السيئة وأحللنا محلها علاقات سوية دائمة.

فلتكن الاعترافات هذه هى المنارة التى تضئ للآخرين حياتهم، ولتتحول لمصابيح تبديد الظلام من حياة الآخرين.

إن زوجاً واحداً شجاعاً يدلى باعترافات مفصلة عن الأخطاء القاتلة التى ارتكبها فى حق زوجته، سوف تمنع بالقطع أزواجاً من ارتكاب نفس الأخطاء. ولما كان هذا الأمر يتطلب قدراً من الشجاعة والفدائية يبدو أنه لم يعد يتوافر فى أزواج هذا العصر، لذلك قررت أن أكون هذا الزوج الشجاع.

سأعترف ..

سأعترف بالتفصيل ..

سوف يكون اعترافى مزلزلاً مروعاً رهيباً وليحدث ما يحدث. وبالرغم من أننى أعلم سلفاً أن أعترافى سوف يجر على - وعلى أزواج العالم أيضاً - مصائب وكوارث كثيرة، غير أن ذلك لن يعنى من الاعتراف.

سوف أقول الحقيقة. كل الحقيقة ولا شئ غير الحقيقة. وليساعدنى الله.

ما أروع هذه اللحظة الحلوة التى يتخلص فيها الإنسان من رعبه من زوجته من أجل الاعتراف بالحقيقة. إنه إحساس - لو تعلمون - جميل وعظيم يرقى بنا إلى مدارج الإنسانية العليا. لذلك فإننى أطلب من القراء ضعاف القلوب أو ضعاف الأعصاب أن يمتنعوا عن قراءة اعترافى وإلا فإننى لست مسئولاً عما يحدث لهم من هوله.

كما أطلب من علماء النفس والاجتماع وخبراء العلاقات الزوجية أن يفتحوا آذانهم وأعينهم جيداً وأن ينسوا كل ما تعلموه .. فمن المؤكد أنهم - بعد قراءة اعترافى - سيكتشفون مجاهل جديدة فى العلاقات الإنسانية، لم يعرفوها من قبل .. معذرة لهذه المقدمة الطويلة، ولكنكم تعلمون بالطبع أن الاعترافات الرهيبة لابد أن تسبقها مقدمة طويلة.. والآن إليكم اعترافى الرهيب : ...

ذات يوم من أيام الربيع الماضى .. ولكن عفوا .. كم الساعة معك

من فضلك؟

الخامسة والرابع .. يا إلهى لقد تأخرت ربع ساعة عن موعدى مع زوجتى .. نعم ؟ الاعتراف ؟ اعترف إيه يا عزيزى .. زوجتى تقف الآن فى الشارع أمام الكوافير منذ خمس عشرة دقيقة كاملة .. ماذا أقول لها .. ؟ طبعاً يا عزيزى أنا شجاع جداً .. وسوف أدلى باعترافى .. ولكن فيما بعد .. فيما بعد يا عزيزى .. لا تكن لحوحاً .. لماذا الإصرار على أن أعترف أنا بالذات .. ؟ إبحث عن زوج آخر يعترف لك .. أرجوك يا عزيزى اتركنى .. أنت لا تعلم ماذا ستفعل بى زوجتى إذا تأخرت عن ذلك ..
سلام عليكم ...

واستعدت زوجتى

استمر نقاشنا هادئاً فترة طويلة ، وفجأة فقدت أعصابها وقالت بحدة : أسمع ، لقد قررت ترشيح نفسى لمجلس الشعب ، ولن يثنينى عن عزمى أحد .. أريد أن أشعر بكيانى وأن أمارس دورى فى خدمة هذا الشعب وهذا البلد ، لقد تركنا لكم مقاليد الحكم والأمر والنهى ، فأوصلتمونا إلى ما نحن فيه .

- وهل تعتقدين أن وصولك للبرلمان سيحل مشاكلنا ؟..

- وصولى أنا وغيرى من المخلصات المتحمسات قد يغير من صورة العمل السياسى ، إن إدارة شئون الوطن لا تختلف كثيراً عن إدارة شئون البيت ، فالوطن هو بيت كبير ، ولن يفلح فى إدارته إلا ربات البيوت .

- سيمتص العمل السياسى كل جهدك ووقتك . لن تجدى دققة واحدة تخصصينها لبيتك .

- غير صحيح، فبالتنظيم الجيد للوقت يستطيع المرء أن يراعى شئون بيته وشئون وطنه .. إننى أعددك ألا أقصر فى حقك كزوجة وأعددك أيضاً ألا أتخلى عن دورى كربة بيت .. هل تعتقد أن السيدة مارجریت تاتشر أفضل منى ؟..

- أنت أجمل منها بكثير ..

- أعلم أننى أجمل منها .. ولكنى أسألك عن شئ آخر. هل هى أفضل منى ؟

- بالطبع لا .. أنت أفضل منها بكثير ..

- أنظر جيداً لعلامحى .. بمن تذكرك؟ ألسن أشبه السيدة أنديرا غاندى ؟..

- نعم يا عزيزتى .. نعم .. ولكن ..

- ولكن ماذا؟ .. ولكنك ستخسر جارية فى البيت تفنى عمرها فى خدمتك .. أليس كذلك؟

هكذا وافقت مرغماً على دخول زوجتى المعركة الانتخابية، لم أوافق فقط، بل أظهرت حماسة وفرحة واضحتين .

وفى جولاتها الانتخابية، أخذت تتردد على أماكن تجمعات البشر فى الدائرة الانتخابية التى رشحت نفسها بها، مصانع، مصالح حكومية، مقاه شعبية، نقابات، نواد، كانت تتناقش وتخطب فى الناس وهى تشرح

خطتها وبرنامجها فى ترشيد الحياة السياسية من أجل حياة أفضل للجيل الحالى والأجيال القادمة .

فى خلال عشرة أيام فقدت من وزنها عشرة كيلو جرامات، هالات سوداء قائمة بدأت ترسم حول عينيها، تغير صوتها، اكتسب بحة غريبة تذكرك بأصوات مطربى الموالد المشروخة . حدث تغير غريب فى ملامح وجهها، لم تعد تشبه السيدة أنديرا غاندى، أصبحت صورة طبق الأصل من غاندى نفسه، اعترف بأننى بدأت أشعر بالخوف منها، بالرغم من كل الحب والتقدير اللذين أكنهما لغاندى العظيم .

أيقظتنى ذات صباح صارخة، لماذا لم ترسل هذه الملابس للمكوى .. هل تعتقد أننى سأترك ما أنا فيه لكى أتفرغ لهذه الأمور التافهة ؟ .. لماذا لا تساعدنى ؟ .. لماذا لا تساعد بلدك ؟ .. وإلى متى هذه السلبية ؟ .. العالم كله يتحرك للأمام، ونحن نتأخر بسبب السلبية واللامبالاة، استيقظ من فضلك، إن النيام لا يصنعون المستقبل .. أرسل هذه الملابس لمحل المكوى فوراً .. ومر على السباك .. إن السخان لا يعمل منذ يومين .. كما أنه لا بد من تغيير المحبس الرئيسى وألا فسوف تغرق الشقة .. إلا إذا كان الأمر لا يهملك .. أنت طبعاً لا يهملك أن تغرق الشقة أو تغرق المنطقة العربية .

قالت ذلك وغادرت الشقة مسرعة .

غداً اليوم الكبير، مئات الآلاف من البشر، سيذهبون للدلاء بأصواتهم، سيضعون تذاكرهم الانتخابية فى الصناديق، كل الأصوات التى ستحصل عليها زوجتى ستحول صندوقاً من هذه الصناديق لتأبوت خشبى تدفن فيه حياتى الأسرية .. لقد غدت زوجتى غريبة عنى وهى مازالت على شاطئ العمل السياسى، ماذا سيحدث لى ولها عندما تتقاذفها الأمواج فى بحر السياسة الهائج المتلاطم .. لا يجب أن يحدث ذلك وبأى ثمن .

فى المساء، كانت تلقى بخطابها الحماسى فى سرادق كبير أقامه سكان الحى لمن يريد أن يتحدث من المرشحين وبعد أن انتهت من خطابها التارى الذى استولت به على أفئدة الجميع، أنصرفت بسرعة للمرور على بقية أنحاء الدائرة .

عند ذلك قام المرشح المنافس لها واعتلى المنصة وقال بصوت كالرعد : أيها السادة .. إن السيدة التى تهمل شئون بيتها وزوجها، ليست أمينة على شئون وطنها . انظروا .. انظروا إلى هذا الرجل المسكين الذى يقف فى نهاية السرادق .. انظروا إلى وجهه الحزين التعس وملابسه الرثة وحذاءه الممزق .. إنه زوجها يا سادة .. سيكون هذا هو حالنا جميعاً إذا أعطيناها أصواتنا .

التفت كل الحاضرين ناحيتى بينما أنا أنظر إلى الأرض فى تعاسة وخجل . وبعد لحظات أخذت أشق طريقى خارجاً من السرادق فى خطوات بطيئة يحسدنى عليها أى ممثل عبقرى .

أعلنت نتيجة الانتخابات، ودخلت زوجتى تاريخ الديمقراطية من أضيق الأبواب، بوصفها أول مرشح فى التاريخ يحصل على صوت واحد فقط . هو صوتها بالطبع، ونجح المرشح المنافس بفضل المشهد التمثيلي الرائع الذى اتفقنا معاً على أدائه .

من يومها وزوجتى تتحدث عن تزوير الانتخابات وخطورة ذلك على الديمقراطية وحركة التنمية .. و.. و.. إلخ، بينما أستمع إليها مؤمناً على كل حرف تقوله .

زوجتي مفتش مباحث

الخوف من فقدان الحبيب مرض يعرفه الأطباء النفسيون جيداً. وهو في الغالب يصيب الزوجات اللاتي يفتقرن إلي الوعي والنضج العاطفي اللازمين لممارسة الحياة بشكل هادئ. وأظهر علامات هذا المرض، هو الحرص الشديد علي الزوج إلي الدرجة التي تؤدي إلي فقدانه .
للأسف ...

زوجتي من هذا النوع .

اعترف أنها تحبني. ولكن علي طريقة ضابط الشرطة ومفتش المباحث. فقد تحولت إلي مكتب جمع معلومات علي هيئة كائن حي .. أين كنت؟ .. من كان معك؟ .. من هذا الذي اتصل بك؟ .. لماذا تحرص علي أناقتك هذا المساء ..؟ إلي أين أنت ذاهب؟ كنت في البداية أجيبها ببساطة ومرح إلي أن فقدت القدرة علي التماسك في

مواجهة جو التحقيق الخائق المتوتر الذي تضعني فيه بمجرد عودتي إلى المنزل.

استولي علي إحساس دائم بأنني متهم في قضية لا أعرف أبعادها و تهمة لا أعرف تفاصيلها. طلبت منها بهدوء أكثر من مرة أن تبتعد بأسئلتها عن دائرة عملي. لأن عمل الرجل يعتبر مملكته وحده .. ولكنني لم أفلق في حملها علي الاقتناع بذلك. وفي أحيان كثيرة كنت أفقد أعصابي في مواجهتها. وكانت هي عقب كل ثورة من ثوراتي تمتنع عدة أيام عن توجيه الأسئلة مكثفية بتوجيه نظرات الشك الباردة التي هي أسوأ من كل الأسئلة. هل هناك ما أخفيه عنها؟
نعم.

لقد استدعاني طبيبها المعالج وقال لي بصوت خافت وعطف كأنه يواسيني: زوجتك لن تلجب .. وعليك أن تتقبل هذه الحقيقة بشجاعة .. إنه قدرك ..

نزل علي الخبر نزول الصاعقة، فقد كنت أحبها، ولست من هواة الزواج مرة ثانية وثالثة بحثاً عن الإنجاب فضلاً عن أنني أكره أن أسبب ألماً لأي إنسان، فما بالك بزوجتي؟
لم أخبرها بما قاله لي الطبيب، بل وأخفيت عنها خبر زيارتي له، وأخذت أفكر في خطة أنقذ بها زواجنا.
وذات صباح قلت لها :

- تعرفين عبد الحميد الذي يعمل مديراً لمكتبي .. لقد ترك الشركة .. وأنا أفكر في تعيين سكرتيرة بدلا منه .

عند ذلك صرخت ..

- سكرتيرة .. لا .. لا ..

رددت عليها ببرود، ولماذا لا .. لا .. لا ؟

- لا وبدون إبداء الأسباب .

عند ذلك صرخت في وجهها: هل تريدان أن ينهار مكتبي .. هل تريدان أن أفلس لكي أبقى هنا بجوارك أتسول القوت .. كنت أنتظر منك أن تساعدني وتختاري لي السكرتيرة بنفسك .

وقعت في الفخ ببساطة، قبلت أن تعمل هي سكرتيرة لي .. وبدأت مرحلة جديدة في حياتي ..

خسرت زوجة مزعجة وكسبت سكرتيرة جميلة مطيعة .. هادئة .. متفانية تعمل ليل نهار علي راحتني فعلا .. لقد كانت بريصة علي أن تبدو دائماً بمظهر لائق أمام الآخرين من موظفي المكتب . وبدأ الهدوء يعرف طريقه لحياتي . فقد حولت كل اهتمامها المتوتر الموجه إلي شخصي إلي اهتمام بناء موجه لعملتي .

وفي هذا المناخ الجديد كان من الطبيعي أن أقوم أنا بإصدار الأوامر وتوجيه الأسئلة طوال النهار .

- أين ملف الشركة الفلانية ؟ .. هل وصلتك الرد من الشركة
العلانية ؟

ولماذا لم تعرضيه علي في حينه ؟ .. لماذا لم تقومي بتسجيل
محضر الاجتماع السابق ؟ .. هل تنتظرين أن أقوم بتسجيله بنفسي ؟ ..
هل العمل ثقيل عليك ؟ .. لماذا لا تبذلين مجهوداً أكبر ..؟ هل تفضلين
أن أقوم بتعين سكرتيرة أخرى ..؟

لاتصلح للمحامة

أعمل مدرساً في إحدى المدارس الإعدادية، وبعد انتهاء اليوم الدراسي أعمل سائق تاكسي حتى الثامنة مساءً، بعد ذلك أعمل مغنياً مع وقف التنفيذ في فرقة موسيقية محترمة تابعة للدولة تقدم الغناء والموسيقى الشرقية. أقصد بوقف التنفيذ هنا، أنني مجرد عضو في فريق الكورال أو كما يسمونه أحياناً «الكورس»، المصاحب للمغنى أو المغنية. وبالرغم من قوة صوتي وعذوبته وحساسية أدائي بشهادة الجميع إلا أن مسئول الفرقة كان يرى أنني مازلت في حاجة لتدريب طويل قبل أن يسمح بتقديمى للجمهور في أغنية فردية.

كان عملى في هذه الفرقة المحترمة ينتهى بعد منتصف الليل بقليل، بعدها كنت أجرى مسرعاً للحاق بفرقة موسيقية أخرى أقل احتراماً تعمل في ملهى ليلي، وأخذ مكانى أيضاً بين أفراد «الكورس»، خلف المطرب في دائرة الظل نردد جملاً غنائية سخيفة خلف مغنى

قبيح يردد كلاماً أكثر سخافة . وعند الفجر أعود لغرفتي وقد امتلأت
برغبة واحدة هي أن أصل لسريري .

كنت متزوجاً مع وقف التنفيذ أيضاً، فدخلت بزوجتي لن يتم إلا
بعد سداد خمسين ألف جنيه ثمناً لشقة صغيرة من غرفتين وصالة في
حي شعبي . ولذلك كان على أن أعمل ليل نهار ولمدة خمسة أعوام .

انتهيت من دفع قسط الشقة الأخير، وفي الشهر القادم سيتم زفافي
على زوجتي . بعد ذلك أكافح للخروج من إسطار الكورس، والتقدم نحو
الميكروفون والغناء بمفردي، لتبدأ مرحلة أخرى من حياتي . نعم، فأنا
مؤمن بالتخطيط ويأت على الإنسان أن يقسم حياته إلى محطات يصل
إليها واحدة بعد الأخرى بكل ما يملك من إصرار .

ولكن يبدو أن صاحب العمارة كان يخطط لحياته هو الآخر بشكل مخالف
لتخطيطي، فبعد أن انتهى من تشطيبها تماماً، اختفى . استولى على فلوس
أصحاب الشقق وسافر إلى أمريكا بعد أن باع العمارة لآخرين، قاموا بدورهم
ببيعها لآخرين، سجلوها بدورهم في الشهر العقاري بأسماء سكان آخرين .

صاعت الخمسون ألف جنيه وصاعت زوجتي أيضاً . فقد صارحتني
أهلها بأنني مسئول عما حدث، فقد كان الواجب أن أتأكد من أمانة
صاحب العمارة ومن أنه ليس لصاً . صارحتني أيضاً بأن شخصاً في
سذاجتي لا يصلح زوجاً لابنتهم .

شكلنا مجموعة من ضحايا صاحب العمارة وذهبنا للمسئولين في كل
مكان، فقابلونا بالابتسامات اللازمة ووعدونا بأنهم سيقومون بعمل اللازم .

أخبرنى أحد أصدقائى بأنه لابد من اللجوء لمحام قدير فى مثل تلك الأمور، فذهبت إلى الأستاذ (ع. ل) وهو محام كبير له سمعة طيبة .
استمع لى المحام حوالى دقيقتين ثم حولنى إلى الأستاذة (هنا) التى تعمل محامية تت التمرين فى مكتبه حيث إنها تخصصت فى هذا النوع من القضايا .

كانت فى حوالى الخامسة والعشرين من عمرها . جميلة ، رقيقة ، تلو وجهها نضارة محبة ، هى بكل المقاييس لا تصلح لعالم المحاماة والمحاكم والنقاضى .

طلبت منى أن أقص عليها حكايتى بكل تفاصيلها ، فسردتها عليها دون أن تقاطعنى . ولكنى استطعت أن ألمح الدموع فى عينيها عندما أخبرتها بأن مصيبتى ليست فى ضياع الفلوس أو الزوجة ، ولكن فى ضياع فرصتى فى الغناء الفردى . لقد حدد مسئول الفرقة حفل الغد لى يقدمنى للجمهور . ولكنى لست فى حالة نفسية تؤهلى للغناء . ولست أدرى بعد كم من الأعوام ستأتينى فرصة أخرى .

قالت الأستاذة هنا (هنا فقط فيما بعد) : أريد أن أطمئنتك لحقيقة هامة ، أرجو ألا يداخلك الشك فيها أو تراودك الآمال الكاذبة بشأنها . لقد خسرت فلوسك للأبد . كما خسرت زوجتك ، أنت فى كارثة حقيقية . وأنا أطلب منك أن تحمد الله على كل هذا الألم الذى تشعر به ... هذا هو مكسبك الوحيد والعظيم معاً .. وإذا لم تفطن لهذه الثروة التى هبطت عليك من السماء فستتحول لإنسان تعس لا يصلح لشيء .

- ثروة ؟ .. ماذا تقولين يا أستاذة ؟

- هل تريدني أن أخدعك ؟ .. هل تريدني أن أغذيك بالآمال الكاذبة واسحب منك في مقابلها المزيد من الفلوس .. ؟ لقد ضاعت فلوسك ... ولم يبق لك غير الألم .. لم يعد أمامك إلا أن تغنى .. غن بكل ما تملك من ألم وعذاب .. أقفز فوق نيران عذابك .. وطر فوق السحاب .. قف أمام الميكروفون وغن .. أن ضياعك الوحيد يكمن في استسلامك .. فلا تستسلم للهزيمة .

ساد الصمت بيننا وأنا أحاول استيعاب كلماتها .. ثم قالت : أنا أحضر كل عروض فرقنكم الموسيقية وكثيراً ما رأيتك تغنى بين الكورس في اندماج وإخلاص .. وأريد أن أسمعك تغنى بمفردك .. وبعد أن تغنى سوف نناقش معاً الإجراءات الواجبة لاستعادة فلوسك .. ولكن لا تنسى أننى صارحتك بأنك لن تستردها .

وغنيت ...

تركت صفوف الكورس وتقدمت صوب الميكروفون بإحساس الفارس الجريح الذى يخترق الصفوف وهو ينزف ليقف على خط الغناء الأول . كل ألامى وإحباطاتى وإنهاك السنين تفجرت فجأة صوتاً قوياً جميلاً منفرداً . كنت أبكى من الألم والفرحة وأنا أوصل الغناء . أغرقت الدموع عيني فلم أعد أرى الجمهور بل لم أعد أستمع لصيحات التهليل والإعجاب .. قال لى زملائى فى تلك الليلة اننى لم أكن أنا الذى يغنى .. لا بد أنه شخص آخر كان مختبئاً بداخلى طوال السنين

الماضية .. إنساناً واحداً كنت أراه بوضوح يجلس فى المقاعد الأولى .. هو هناء .. بعد أن انتهيت من الغناء التفت حوالى زملائى وبعض المعجبين من الجمهور .. إنهار على مسئول الفرقة عناقاً وتقبيلاً . تقدم ناحيتى شخص تبدو عليه إمارات الثراء قائلاً: نريد أن نسجل لك شريطاً .. أنا صاحب شركة النجوم الجديدة .

عند ذلك تقدمت منه هناء فى تحد : لقد سبقناك يا أستاذ .. أنا مندوبة شركة الغد للصوتيات .. جئت للاتفاق معه على خمسة شرائط .. وليس شريطاً واحداً .. وسوف ندفع له مبلغاً لن تقدر عليه ميزانية شركتكم .. سندفع له أربعين ألف جنيه ..

عند ذلك صرخ الرجل فى وجهها: ماذا تقولين يا أنسة ؟ .. أنت لا تعرفين مع من تتكلمين .. سندفع له خمسين ألفاً .. وسنوفر له أعظم الملحنين والموسيقيين . من أنتم ؟ .. أننى لم أسمع عنكم من قبل .
عند ذلك انسحبت هناء متظاهرة بالغضب والهزيمة .

وفى الغد ذهبت إلى مكتب المحامى لأشكرها .. ثم تكلمنا عن الحفل القادم وأغنيتى القادمة .. وتركنا هناء المحاماة .
ألم أقل لكم إنها لاتصلح لهذا النوع من العمل . هى تصلح زوجة لى فقط .

الغطاء

انتهى دور النجار فى تنفيذ الصالون الخشبى الغريب، والمكون من أريكة ومقعدين وطاولة صغيرة. ولكنه مازال فى حالته الخشبية الأولية، لم يصبح بعد صالوناً يصلح للاستخدام لابد من تنجيده وكسوته بقماش من نوع فريد. وهذا النوع الفريد يمكن الحصول عليه من أحد مصانع النسيج الصغيرة التى تتولى صنع الأقمشة الفريدة.

وبدأت رحلة البحث عن القماش.. فى النهاية، دلنا خالها على المصنع الذى تملكه مجموعة من الفنانين التشكيليين الناجحين الذين يقومون برسم الأشكال الجديدة الأصيلة، ثم يحولونها إلى أقمشة ستائر وكسوة صالونات يخصصون بها الفنادق الكبيرة، التى تضمن فى هذه الحالة عدم تكرارها فى أماكن أخرى، لكى يحتفظ كل فندق بطابعه مميزاً.

قابلنا مدير المصنع الذى عرض علينا عشرات الرسوم والتصميمات والنماذج الجديدة وهى بالفعل جميلة، ولا مثيل لها فى السوق. إلا أن كل هذه النماذج لم تعجبها، وأخرجت من حقيبة يدها صورة فوتوغرافية التقطتها للصالون الخشبى وقالت للرجل: كل هذه الرسوم والتشكيلات تصلح للصالونات العادية، ولكن صالوننا فريد.

تأمل الرجل الصورة الفوتوغرافية وقال: إنه فريد بالفعل، لم أشاهده من قبل، ولا أعتقد أننى سأشاهده فى مستقبل الأيام، أنت على حق ياسيدتى، لا شئ مما لدينا يصلح له. سوف أكلف أحد فنانينا الممتازين المجددين برسم وتصميم قماش جديد يصلح كسوة لهذا الصالون.

ابتهجت وقالت: أريد وحدات من الزخرفة المتكررة التى تستخدم الحرف الفارسى أو الكوفى، أو كليهما معاً فى امتزاج فنى وتناغم تشكىلى. كما أفضل أن تكون الخلفية أو الأرضية منتمة قدر الإمكان للمذهب فأريدها مبهجة، زاهية، واضحة، تعطى إحساساً بالتفاؤل والإنشراح. ولا مانع من بعض المساحات اللونية القائمة التى تعطى معادلاً موضوعياً حزيناً للألوان الزاهية المتفائلة. فيما عدا ذلك أنا أعطى للفنان الذى سيقوم بعمل الرسوم حريته كاملة غير منقوصة لكى يتفرغ للإبداع.

أجاب الرجل بمودة: لقد فهمت تماماً الآن ما تريدونه يا سيدتى. إن إمامك الواسع بالفن التشكىلى سوف يسهل مهمتنا إلى أقصى حد.

وبدأت رحلة الألف ميل.. نعم الألف ميل قطعتها فى الصيف والشتاء، فى البرد والحر، فى الأمطار والأعاصير، وفى الجو الصافى

الرائق الذى كان يجب أن أمتع به بشكل مختلف. ألف ميل قطعها راحاً لمصنع النسيج، غادياً من مصنع النسيج.

عشرات من الفنانين عملوا فى التصميمات والرسوم، مئات الساعات قضيناها فى النقاش الحاد والودى والغاضب مع الفنانين لعمل التعديلات فى الخطوط والألوان التى ترى زوجتى تعديلها.

هل من الممكن أن يكون هذا اللون الأحمر برتقالياً؟ هل يمكن أن يخف هذا اللون الأزرق ويشف ويرق حتى يصبح بلون السماء، وليس بلون البحر؟ هذا الأخضر قاتم، أريده بلون الزرع؟ هل يمكن لهذه أن تكون صفراء بدلاً من اللون البنى؟ ما هذه الوحدة الزخرفية؟ هل هى حبة باذنجان؟ لا يا سيدتى، إنها بقعة لونية لعمل التوازن الفنى بين هذا اللون وذلك. حسناً أكسر هذه الإنحناءة هنا. خفف هذا اللون هناك. ويرد الرجل: فى هذه الحالة ستصبح وحدة الزخرفة مستديرة، وسوف تعطى لمن يراها انطباعاً قوياً أنها حبة قلقاس، أنا أفضل أن نتركها هكذا.

حسناً أتركها هكذا ولكن خفف اللون قليلاً.

انتهت رحلة الألف ميل. وافقت على التصميمات النهائية بعد إجراء مئات التعديلات التى طلبتها فى الألوان وفى الخطوط والوحدات الزخرفية. لم يصدق الرجل أذنيه عندما سمعها تقول: موافقة.

لذلك طلب منها موافقة خطية وأن توقع بإمضاءها على التصميمات وتنفس الصعداء. جبل كبير كان يجثم على أنفاسى إنزاح وذهب بعيداً. هم مقبم قرر أن يرحل بعيداً عني، ولكن المشكلة لم تنته بعد.

سألنا مدير المصنع: ما هي خامات الخيوط التي تريدون استخدامها في النسيج المطلوب؟

سألته: ما هي الخامات التي تستخدمونها؟

قال: تيل، صوف، قطن، كتان، حرير صناعي، نايلون، خيوط صناعية.

قالت: إنى أريد..

عند ذلك قاطعها الرجل وهو يصيح صيحة اهتزت لها جدران المصنع وجدران البيوت المحيطة به، وفي الغالب سجلتها مراكز الأرصاد المحيطة بالمنطقة العربية: أعرف ما تريدان يا سيدتي، أنت تريدان نسيجاً خاصاً فريداً من نوعه. هو مزيج من التيل، والقطن والصوف، والكتان، والحرير الصناعي، وخيوط النايلون والبلاستيك، والبلاستونيل والبلاستوفستك، والبلاستوسيد.

ردت بهدوء: نعم.. بالضبط هذا هو ما أريده تماماً.

كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أراها توافق على شيء بسهولة بمجرد عرضه عليها.

أخذنا القماش ودفعنا ثمنه. بالطبع أضاف صاحب المصنع للفاتورة ثمن المتاعب التي سببناها له. وعندما خرجنا، كان من السهل على أن ألمح نظرات الارتياح في عيون كل العاملين في المصنع. (علمت فيما بعد أن صاحب المصنع أعطى أمراً للحراس والخفراء بمنعنا من الدخول لأي سبب. وسلمهم كميات إضافية من الذخيرة وطلب منهم الصرب

فى الملىان إذا استدعى الأمر. ولكننى استبعد ذلك ولا أصدقه، فحن لم نؤذه إلى الحد الذى يجعله يفكر فى قتلنا).

أخذنا القماش الفريد وذهبنا للمتجد الذى فردّه وأخذ يتأمل بهدهشة ثم قال: لولا أننى أعرف أن بيكاسو قد مات، لظننت أنه هو الذى رسمه فى حالة إحساسه بالضياح بعد خروجه من أسبانيا. أو لعله من رسم أحد تلامذته، من أين أنيتم بهذا القماش الغريب؟

— من مصنع قريب، سوف أعطيك عنوانه.

أرجوك أعطنى عنوانه. أنا فى حاجة شديدة لهذا العنوان.

(عرفت فيما بعد أن الرجل حصل على عنوان المصنع لكى يحذر زبائنه من الذهاب إليه أو التعامل معه أو المرور فى دائرته).

هل هبطت عليك ألف مليون دولار من السماء من حيث لا تدري؟
هل منحت جائزة نوبل؟ هل تمت ترقيتك إلى درجة وزير بعد ساعة واحدة من تعيينك فراشاً؟

لقد شعرت أنا بالفرحة الناتجة عن كل ذلك عندما جاء الصالون المشؤد أخيراً، وأخذ مكانه فى الركن المحدد له.

جلست على الأريكة بخفة وأنا أحتسى قهوتى. أقول جلست بخفة لأن شكلها لا يوحى بالمتانة مطلقاً، وأحسست بخوف غامض عندما قفزت إلى ذاكرتى نكتة قديمة تقول: اشترى أحد الناس أريكة فإنهارت على الأرض فى نفس اليوم. إذ لم تحتمل ثقله عندما جلس عليها.

وعندما ذهب إلى البائع معاتباً ثائراً رد عليه بدهشة شديدة: تقول كسرت؟ مستحيل، لابد أن أحداً قد جلس عليها.

استبعدت ذلك الخاطر المخيف، لأن الأريكة متينة فعلاً، وإن كان شكلها لا يوحي بذلك.

ولكن يا إلهي، أشعر بانقباض، ترى، ما هو سر ذلك الخوف الغامض الذي أشعر به الآن؟

ولم يتأخر الجواب، جاء سريعاً. إذ قالت: والآن يا عزيزي، جاء دور الغطاء.

— أى غطاء؟

— غطاء الصالون، هل سنتركه عارياً هكذا ليتسخ من أيدي الجالسين؟ هل سنترك هذا القماش الجميل معرضاً للتراب ولوقع القهوة والشاي عليه؟ هذا القماش في حد ذاته لوحة فنية نادرة ولا بد من حمايته. لابد أن نغطيه بغطاء من أى قماش رخيص وبسيط. لن أصعب المسألة، اختر اللون الذي تريده والخامة التي تريدها.

نهاية أحلام السيطرة

(لست أذكر الظروف التي حصلت فيها على هذا الاعتراف من صاحبه. كما لا أذكر الظروف التي جعلته يحتل مكاناً بين اعترافات الرجال، غير أنني قررت إثباته لطبيعته التي تكاد تكون «رجالي»، ع.س.).

عرفت الكثير عن الحياة الزوجية من خلال أحاديث وخبرات قريباتي المتزوجات والمطلقات بغية أن أصل إلى نظرية متكاملة في العلاقات الزوجية تكفل لي النجاح كزوجة عندما يتقدم لي ابن الحلال. ولذلك عندما جاء حسن ليخطبني كنت مسلحة بقدر كبير جداً من الفهم لطبيعة العلاقة بين الجنسين. لم تخدعني طيبة قلبه الواضحة وتهذيبه ودمائة خلقه، فالرجال لديهم قدرة على التمثيل والخداع ما يدريني ومن يدريني أن هذا السلوك يمثل حقيقته بالفعل ؟ .. لذلك حرصت خلال مرحلة الخطوبة على معاملته ببرود ولكن ليس على طول الخط،

فقد كنت ابتسم له أحياناً بل وكنت أيضاً أشكره باقتضاب وخاصة عندما يحضر لى بعض الهدايا.

وزاد حرصى بعد عقد القران على أن أؤكد له أننا لم نتزوج بعد وأنا من وجهة النظر العملية مازلنا مخطوبين، ومع ذلك - ولكيلا يتهمنى أحد بالفضاظة - فقد كنت أسمح له أحياناً أن يلمس يدى ولكنى لم أكن أبقئها فى يده طويلاً. لا يجب أن يشعر حسن أننى مدلهة فى حبه فأن هذا يسئ إلى صورتى كزوجة وكأنثى. بل ان حسن معاملتى له قد يدفعه لأن يسئ معاملتى ويدفعه لمحاولة السيطرة على الأمر الذى ارفضه بحزم وحسم.

غير أنه لن يفهم ذلك عملياً إلا إذا قمت أنا بالسيطرة عليه. إن سيطرتى عليه ستجعل منه خائفاً فى إصبعى وسوف تحميه من أى أفكار خاطئة تتسلل إلى عقله. وبالرغم من أن حب السيطرة ليس صفة أصيلة فى إلا أننى أفتعلها حرصاً على بيتنا. إن نجاته ونجاتى ونجاة قاربنا الزوجى فى بحر الحياة المتلاطم متوقفه جميعاً على إحكام سيطرتى عليه. وبذلك نصل إلى السعادة التى ينشدها كل زوج زوجة.

البيت هو مملكتى، وأنا المسئولة عن كل شئ فيه، بما فى ذلك حسن. ولكى لا يعرف أن آرائى هامة لا تقل أهمية عن آرائه لم أكن ألتقى معه فى شئ. عندما يقول شمال أقول يمين. يقول فوق أقول تحت، يقول أبيض أقول أسود. يقترح أن نقضى الصيف فى قبرص

فأصر على الذهاب لرودس، يكلمنى عن عادل إمام فامتدح يونس شلبى، يبدي إعجابه الشديد بسعاد حسنى فأبدي إعجابى الأشد بفاطمة رشدى. عندما كان يحدثنى بفرحة الأطفال عن نجاحه فى العمل كنت أعلق على ذلك ببرود وبلا حماسة. ماذا يظن هذا الرجل هل يظن أنى سأخر صريعة إعجابى بنجاحه .. فى النهاية هو ينجح لنفسه. لا يجب أن يشعر الرجل أن نجاحه سيمكنه من فرض سيطرته على زوجته .. وعندما كان يفشل فى شئ كنت ألومه بشدة بالطبع، لكيلا يستمر فى الفشل ويستسلم له. وبما أننى أكره المفاجآت لذلك كنت حريصة على أن أعرف كل شئ عنه. فلم أكتف بالتحقيق معه كل يوم، أقصد بسؤاله كل يوم، بل كنت أقوم بتفتيش أوراقه وجيوبه. إن هذه الطريقة ناجحة تماماً للاطمئنان على سلوك الزوج. بالطبع كان يثور أحياناً كأى زوج ويدعى أننى أعامله معاملة رديئة، وعلى الفور كنت أشن عليه هجوماً مضاداً ثم انخرط فى نوبة بكاء حادة. فكان يستسلم ليثور بعد فترة. إنه مازال يقاوم. ولكنه فى النهاية سيخسر كل معاركه ويهدأ ويتحول إلى إنسان لطيف مطيع بعد أن أثبت له بوضوح وبكل الطرق أنه غير قادر على السيطرة علىّ، وأن سعادته وراحة أعصابه وهدوء باله أمور سهلة التحقيق بشرط أن يطيعنى.

ولكن يبدو أن الرجال لا يفهمون ولا يقدرّون الجهد الكبير الذى نبذله من أجل إسعادهم والسيطرة عليهم أقصد والمحافظة عليهم، تصوروا، لقد ثار فجأة عقب مناقشة عادية، وفوجئت به يحطم كل شئ

فى المنزل ويتهمنى بأننى قد حولت حياته لجحيم .. بكيت بحرقة وأخذت أدافع عن نفسى معددة أفضالى عليه . هو لا يعرف أننى رفضت الزواج ممن هم أكثر منه جاهاً وثروة وفضلته على الآخرين لطيبة قلبه وعلى أمل أن أصنع منه شيئاً ما .. ولكن ها هو ذا يظهر على حقيقته التى أخفاها عنى زمنأ طويلاً، إنه رجل شرير لا يحلم إلا بالسيطرة علىّ فقط . يقول إننى لا أعامله بحب ولا حتى بود .. كيف تريد أن أعاملك يا أستاذ؟ إننى زوجة يا سيد ولست غانية .. هل تريد أن أقول لك كلمات معسولة ..؟ هل تريد أن أقول لك يا حبيبى ويا روح قلبى كما يحدث فى الأفلام الهابطة .. لن أقولها لك لأننى زوجة محترمة .. ألا تفهم معنى أن تكون الزوجة محترمة محافظة على كبرياتها؟ سكت حسن . ظل ساهراً بجوارى حتى الصباح يحدق فى سقف الغرفة .. لم يحاول أن يصالحنى كما كان يحدث فى كل مرة نتشاجر فيها . وفى الصباح خرج ولم يعد .

بعد عدة أيام أرسل لى ورقة الطلاق . الآن فقط عرفت خطئى الوحيد، لقد عاملته بتدليل وتفانيت فى الحفاظ عليه . كان يجب أن أبذل مجهوداً أكبر للسيطرة عليه .. أليس كذلك ؟ .

زوجتى والذهب

العمل فى سوق المال يتطلب عقلاً بارداً وأعصاباً ثابتة، وبصيرة نافذة، وقدراً لا بأس به من الحظ الطيب.. وأنا - والحمد لله - لا ينقصنى العقل البارد ولا ثبات الأعصاب ولا البصيرة النافذة .. فقط ينقصنى الحظ الطيب، ففى الأيام القليلة الماضية، لازمنى سوء الحظ فى بورصة لندن ففقدت نصف ثروتى، ولا تسألونى عن نصفها الآخر، فقد خسرت من قبل فى مشروع فاشل. باختصار، أنا الآن مفلس.

ولكن الفشل فى حياة رجال المال والأعمال ليس كارثة كبيرة وخاصة عندما يحدث فى بداية حياتهم، أمر طبيعى جداً أن يفشل الواحد منهم مرة ومرتين أو ثلاث مرات. ثم يتعلم بعد ذلك من فشله ويستفيد من أخطائه ثم يخوض مغامرة جديدة، يريح فيها وتعوضه عن كل ما خسره من قبل، عند ذلك يمتلئ بالثقة والجرأة ويشق طريقه

بثبات إلى القمة، قمة المال. هذا هو ما أفكر فيه، أن أخوض مغامرة مالية جديدة، محسوبة جيداً، بل ومضمونة. الذهب، نعم، الذهب وهل هناك غيره ؟ كانت فيه النجاة على مر العصور.

سوق الذهب هذه الأيام، هو السوق الوحيد الذى لايشكل العمل فيه أى مغامرة، فالأوقية قد ارتفع سعرها من ٢٥٠ دولاراً إلى ثلاثمائة دولار فى أربعة أيام، وسيوالى ارتفاعه فى الأيام القادمة. لقد قرأت بدقة تحليلات رجال الاقتصاد فى العالم فى كل ما وصل إلى يدى من مجلات وجرائد، ووجدتهم يجمعون على أنه لا شئ فى المستقبل القريب سيوقف هذا الارتفاع. وكلمة القريب هنا تعنى على الأقل عدة شهور.

ولكن، من أين لى بالمال الذى أشتري به الذهب لأبيعه فيما بعد؟ أصدقائى أقرضونى بما فيه الكفاية، والبنوك سترفض أن تعطينى درهما واحداً بعد أن أنكشفت بشكل واضح فى السوق. ولمع الحل فى عقلى. القلادة. نعم، هذه القلادة سوف تنقذنى وتكون طريقى للنعيم، للقمة، قمة المال. هى قلادة ثمينة مرصعة بالماس والأحجار الكريمة وصلت لزوجتى عبر الزمن بالميراث عن إحدى جداتها البعيدات، وكانت زوجة لموظف كبير كان يعمل فى خدمة وإلى حلب أثناء الحكم العثمانى. سأودعها أى بنك فى أى عاصمة أوروبية ثم أقترض بضمانها مبلغاً كبيراً، أشتري به كمية لا بأس بها من الذهب، أبيعه بعد

أن يكون سعره قد ارتفع، عند ذلك أسدد دين البنك وأسترد القلادة لأعيدها إلى مكانها فى هدوء. وبذلك يتجمع لدى مبلغ من المال أتولى استثماره فى حرص هذه المرة، وبذلك تدور العجلة فى مجراها السليم، ستسألون، ولماذا لا تخبر زوجتك بتفاصيل ما تنوى عمله؟

زوجتى لا تحب المغامرة، ولا تتمتع بقوة الأعصاب اللازمة لمواجهة مثل تلك الأمور، سترفض. وحتى إذا وافقت تحت ضغط منى، فلا بد أنها ستصاب بالرعب على مصير القلادة. لاضرورة لمفاتها فى الموضوع، ستختفى القلادة من مكانها فى خزانة البيت الحديدية ثم تعود إلى مكانها مرة أخرى دون أن تتنبه هى أو أى مخلوق لذلك. وإذا كان البشر يعترفون ويقدرّون الأكاذيب البيضاء التى تصلح بعض المواقف ولا تضر أحداً، فلا مفر من الاعتراف بأن هناك أيضاً أفعالا، بيضاء وبالتأكيد فعلتى هذه تنتمى لهذا النوع من الأفعال.

استقرت القلادة فى جيبى. ولكيلا أترك أى احتمال لسوء الحظ، أثبتتها على إقرارى الجمركى عند دخولى لندن، وزيادة فى الحرص وضعتها فى خزانة الفندق.

وفى الصباح توجهت لبنك ذى سمعة طيبة يعرفنى مديره، وافق مدير البنك على إقراضى مائتى ألف دولار. عند ذلك أدركت أن القلادة يبلغ ثمنها على الأقل نصف مليون دولار. على الفور طلبت منهم أن يشتروا لى بالمبلغ كله ذهباً وبعد ذلك عدت للفندق. وحدث ما توقعته، وارتفع سعر أوقية الذهب إلى أربعمائة دولار بعد سبعة أيام

بالضبط، ألم أقل لكم إننى شخص نافذ البصيرة؟ من المؤكد أن سعر الأوقية سيرتفع إلى ألف دولار قبل نهاية العام. وهذا ليس تقديري وحدى، إنه تقدير كل خبراء الاقتصاد فى العالم كله كما عرفتكم من متابعتى للصحافة ونشرات الأخبار فى كل الإذاعات الأجنبية. لم أسدد قرض البنك، ولماذا أسدده الآن؟ سيقبل ذلك من المبلغ الكلى للاستثمار. سأسدده بسهولة فيما بعد.

أرسلت استدعى زوجتى بعد أن أستاذت شقة فخمة تليق بوضعى الجديد. ثم تفرغت لممارسة لعبتى الجديدة. أشتري وأبيع. أبيع وأشتري. كل ذلك يتم على الورق فقط بينما رصيدى يزداد ويرتفع بشكل فعلى وعملى.

وفجأة، وعلى عكس كل توقعات الخبراء، هبط الذهب، وقعت أسعاره من حالىق. وقعت على أم رأسى، باختصار شديد خسرت كل ما أملك. حتى المبلغ الذى افترضته فى البداية بضمنان القلادة، أنا عاجز الآن عن تسديده للبنك. لقد ضاعت القلادة.

فى تلك الليلة لم أتم. أخذت ألقاب فى فراشى يكاد يسحقنى الخجل والإفلاس، وقبل الفجر بقليل قالت زوجتى:

- لا بد أن تؤمن بالقدر، إنك لست مؤهلاً لمثل تلك الألعاب المالية، وأنا لست حزينة لما حدث، أنا حزينة فقط لأنك غامرت بقلادتى دون أن تأخذ رأيى. على العموم لقد تحدثت مع أخى تليفونياً. سوف يقوم

بتحويل مبلغ فى الصباح تسدد به دين البنك وتسترد القلادة، وتدفع
إيجار الشقة، وتحجز لنا على أول طائرة، والآن تستطيع أن تنام.
أنا أعمل الآن كاتب حسابات فى شركة تجارية بعد أن أدركت بنفاذ
بصيرتى أننى لن أكون يوماً عضواً فى نادى رجال المال. حياتى الآن
مستقرة هادئة، ومرتبى معقول يكفينى وزوجتى ويكفى أيضاً لدفع
أقساط شهرية لأخيها، وهناك احتمال إذا سارت الأمور على مايرام أن
أتمكن من سداد المبلغ الذى اقترضته منه بعد خمسة وعشرين عاماً،
بإذن الله.

مرض الحنين إلى الوطن

ارتفع صوتها، فارفع صوتي . فقدت أعصابها، فقدت أعصابي .
دبت على الأرض بقدميها فضربت على الطاولة بيدي فانكسر لوح
الزجاج الذي يغطيها، في لحظات كنا نصرخ، سمعت جرس الباب يرن
في إلحاح ففتحت وأنا في قمة الغضب، كانت جارتنا العجوز التي تقطن
الشقة المجاورة .

قلت لها في غيظ وإنجليزية سوفية:

- نعم يا سيدتي .. ماذا تريدین ؟..

قالت بإنجليزية أكسفوردية: أنتما تعيشان في بلد متحضر .. وفي
البلاد المتحضرة لا تحل الناس مشاكلها بالصراخ وإزعاج الآخرين .

- ألا يتمتع الناس هنا في كندا يا سيدتي بحرية الصراخ ؟.. ألا يتمتعون
بالحق في أن تكون لهم خلافاتهم الزوجية مثل سائر مخلوقات الله .

- لست اعترض على استمتاعكما بخلافاتكما الزوجية .. إننى أعارض فقط على طريقتكما فى التعبير عنها .. منذ أن جئتما من وطنكما يا سيدى . وأنتما تحرماننا من النوم، وفى الغالب سوف يقتل أحدكما الآخر .. وإذا حدث ذلك فسوف تسببان إزعاجاً كبيراً لكل سكان الحى .. لماذا لا تحملان مشاكلكما ومتاعبكما وتذهبان لمكتب حل الخلافات الزوجية . هذا المكتب يعمل ليل نهار، والمسئولون فيه خبراء فى كل أنواع المشاكل الزوجية، المادية منها والنفسية، المختلفة والملموسة .

- نحن قادرون يا سيدتى على حل مشاكلنا .

- غير صحيح .. بدليل تلك الدماء التى تسيل من أصابعك الآن .. استمعنا إلى نصيحتى وارتديا ملابسكما الآن وتوجها لمكتب حل الخلافات الزوجية .. هذا هو العنوان ورقم التليفون .. أتفضل .

منذ وصلنا إلى كندا ونحن نتشاجر لأتفه الأسباب، وليس بعيداً كما قالت السيدة أن يقتل أحدهما الآخر . لماذا لا نجرب هذا المكتب ؟ .. على الأقل لكيلا أندم فيما بعد على أى قرار اتخذه .. وافقت زوجتى على الفكرة لسبب وحيد أن تثبت أمام الآخرين أننى المخطئ على طول الخط . اتصلت بالمكتب تليفونيا فحددوا لنا موعداً بعد ساعة .

فى قاعة الانتظار الفخمة الواسعة وجدت مجموعة كبيرة من الأزواج والزوجات من مختلف الأعمار وكل منهم يتحاشى النظر فى وجه الآخر . سحابة ثقيلة من التعاسة والغضب كان تشيع فى القاعة .

حتى هؤلاء الذين كانوا يخرجون من مكتب الباحثة الاجتماعية بعد الانتهاء من بحث حالتهم كانوا ينظرون إلى الأرض أو ينظرون إلى لا شئ وهم يخرجون فى خطوات بطيئة وقد حاولوا قدر استطاعتهم أن يرسموا على وجوههم ابتسامة زائفة .

أخيراً جاء الدور علينا . أدخلتنا موظفة شابة إلى مكتب الباحثة التى ستكون مسئولة عن حل مشاكلنا الزوجية . (تمكنت بالفعل فيما بعد من حل كل مشاكلنا) كانت فى حوالى الثلاثين من عمرها ، ترتدى ثياباً بسيطة وتضع مكياجاً خفيفاً . وكانت غرفتها مؤتة بشكل يوحى بالراحة والهدوء . قامت من خلف مكتبها مرحبة بنا ثم جلست فى ركن الغرفة بعيداً عن المكتب .

قالت بالفرنسية: هل تفضلان الحديث بالفرنسية أم بالإنجليزية ؟
قالت زوجتى هامسة بالعربية: طبعاً حانتكلم بالإنجليزى .. ربنا يستر على الإنجليزى بتاعك المنيل بستين نيلة .
رددت عليها هامساً: طبعاً نتكلمين الإنجليزىة أفضل منى .. لأن أبوكى لورد .

نظرت الباحثة لنا فى دهشة .. من الواضح أنها لم تفهم حرفاً واحداً مما نقول ، ولكنها فهمت بالطبع أن كلانا كان يشتم الآخر .. فلغة الشتيمة مثل لغة العيون ، عالمية .

بدأت أتكلم وزوجتى تقاطعنى فى غلظة، وبعد أن انتهيت من شرح متاعبى معها، جاء الدور عليها فى أن تحكى متاعبها وجاء الدور على أيضاً لكى أقاطعها تقريباً بالغلظة نفسها. كان كل ما تقوله يفتقر إلى الصدق والإنصاف.

فى النهاية سألتنا الباحثة: هل يود أحدكما أن يضيف شيئاً؟
هزنا رأسينا نفيًا. بالطبع كان هناك ما يود كل منا أن يضيفه، ولكن التعب والخجل أيضاً كانا قد استوليا علينا. عند ذلك قالت الباحثة: أعتقد أنه من الأوفق أن أتحدث معكما باللغة العربية.. فلم أنسها بعد.
أوضح أنها (بلديات)، هاجرت مع زوجها الذى توفى بعد وصولهما لكندا بقليل فتنفرغت للعمل وتربية ابنها الوحيد. كانت حاصلة على درجة الدكتوراه فى التحليل النفسى. أخيراً تكلمت الدكتورة سناء: كل منكما يحب الآخر بعنف. ولكن الحب وحده لا يكفى لحماية الزواج. لابد من الفهم، أنتما تعانيان من الحنين المرضى للوطن، هذا الحنين يشعركما بالتعاسة، التى بدورها تتحول لمتفجرات دائمة.. وإذا لم تقاوما هذا المرض فستنتهى حياتكما بالدمار. عليكما بتحويل طاقة الحنين المرضى إلى الوطن إلى طاقة حب.. لا تبحثا عن ولا تفكرا فى الوطن البعيد، الوطن يرقد تحت جلودنا.. ليتحول كل منكما لوطن للآخر.

كانت كلماتها جميلة مثلها تماماً، حاولت المستحيل من أجل إنقاذ زواجنا. زارتنا عدة زيارات ومعها طفلها. وكثيراً ما كانت تخطى

بزوجتى فى المطبخ تشرح لها فى همس ما يجب عليها أن تفعله لكيلا يهدد البيت فوق رأسينا. كما كانت تواجهنى بأخطائى بصراحة وبساطة وبغير عدوان. ومع ذلك وبالرغم من كل المجهود الذى بذلته، جاءت اللحظة التى طلبت فيها زوجتى الطلاق وأصرّت عليه. فشلت فى إثباتها عن عزمها، كما فشلت سناء. عدة مجموعات من خبراء الحياة الزوجية وعلماء التحليل النفسى لم يفلحوا فى إنقاذ حياتنا الزوجية، وأخيراً نصحننا الجميع بالطلاق.

وغادرت زوجتى كندا بعد أن أكتسبت صفة جديدة، مطلقتى.
وتزوجت سناء.

لا أقول إنها أفضل من زوجتى السابقة بكثير، فالنساء بوجه عام متشابهات. ولكنها مختلفة قليلاً عنها، فهى تسبب لى الضيق أحياناً كأى زوجة. ولكنها فى أحيان أخرى تطير بى فوق سحب النعيم. بالطبع تحدث بيننا خلافات كثيرة، ولقد حاولت ذات مرة أن أستجد بمكتب حل الخلافات الزوجية إلا أنها انتزعت منى سماعة التليفون ووضعتها بعنف صارخة فى وجهى: هل تصدق هذه الخزعبلات ؟.. لا أحد على ظهر الأرض قادر على حل مشاكل الآخرين.
قلت لها مصعوقاً: ولكنك ساعدتينا.

ساعدتكما على الطلاق، لقد أدركت منذ اللحظة الأولى أن الانفصال بينكما أمر حتمى، ولو لم أدخل حياتكما ما كان من الممكن أن تستمر،

لقد تعبت كثيراً فى انتظار سقوط الثمرة... (التي هى أنا ؟ !!) هل هى صدفة أن تتزوج كل موظفات المكتب من رجال كانوا زبائن عندهن ؟.. لقد التحقنا جميعاً يا زوجى العزيز بهذا المكتب من أجل فرصة أوسع فى الاختيار.

منذ تلك اللحظة لم تسمح سناء لمخلوق بالتدخل فى حياتنا الزوجية بالسلب أو بالإيجاب. وتحول كل منا بالفعل فى تلك الغربة الموحشة إلى وطن للآخر، يحبه، ويرعاه، ويخلص له، ويكرمه أحياناً دون أن يفقد الإيمان بقدسيته.

حسنية

أننى على استعداد تام لأن أوقع بأسمى على هذا الاعتراف، ومستعد أيضاً أن أكتب عنوانى ورقم هويتى الشخصية.

فلم أفعل ما يشعرنى بالعار أو الخجل. بل فعلت ما كان يجب على أن أفعله كأدمى وكرجل. العار الوحيد كان ألا أفعل ما فعلت.

نعم. طلقت زوجتى سميرة ابنة الأكابر وابنة الحسب والنسب وتزوجت من حسنية مطلقة عم عبده الذى كان يعمل عندى حارساً للفيلا وبواباً وحدائقياً.

ولكن قبل أن تذهب بكم الظلون كل مذهب، أسمعوا حكايتى واحكموا.. وليكن حكمكم ما يكون، فالمهم هو حكمى على نفسى. إن ضميرى مرتاح تماماً لما حدث، بل أنا فخور بقدرتى على اتخاذ هذا القرار.

زوجتى سميرة، أنجبت لى طفلاً فكدت أطير من الفرحه. وتجسدت دنياى كلها فى هذا الطفل. ولكنها فشلت فى إرضاعه رضاعة طبيعية. أقول فشلت، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك. لقد تعمدت أن تفشل، فقد كانت تؤمن فى أعماق أعماقها أن الرضاعة الطبيعية ستضر بشكلها العام ويرشاققتها التى تحافظ عليها بكل الطرق، ومن بين هذه الطرق، أن تمتنع تقريباً عن الأكل، أو نكتفى فى كل وجبة بعدة لقيمات تأكلها فى فتور وحذر وضيق. الأمر الذى يدفع من يتناول طعامه معها إلى كراهية الدنيا. إن الطعام يفقد قيمته على الفور عندما تجد زميلك على المائدة يأكل بتأفف وبلا حماسة وكأنه يقوم بواجب ثقيل على نفسه.

بدأت أعرف كل أنواع اللبن الصناعى وخصائص كل نوع منها. هذا النوع صالح للتناول شتاء.. وهذا فى الصيف.. وذلك فى الربيع.. إذا ارتفعت درجة حرارته فلا تعطه هذين النوعين.. بل اعطه نوعاً ثالثاً.. هذا هو اسمه.. أبحث عنه فوراً فى الصيدليات.. لا تعطه نوعاً غيره، فقد يسبب له إسهالاً خطيراً.

ذات ليلة بحثت فى كل الصيدليات عن نوع وصفه الطبيب فلم أجده، كلمت كل معارفى، اتصلت بالهيئة العامة التى تقوم باستيراد الأدوية، ولكنى فشلت فى الحصول على علبة واحدة. فعدت إلى البيت وأنا أكاد أموت من الغضب والغیظ. وجدت ابنى يصرخ من الجوع صراخاً أيقظ كل سكان الحى... شعرت أننى على وشك الجنون.

كان لحسنية زوجة عم عبده طفل فى مثل عمر طفلى تقريباً، وبالتأكيد هى ترضعه رضاعة طبيعية، كما أنها لم تذهب به للطبيب من قبل. طلبت من زوجتى أن تستدعى حسنية، لترضع الطفل. فرفضت حرصاً على مكانتنا الاجتماعية، ماذا يقول الناس عنا عندما يتسرب الخبر.. بل ماذا يكون تأثير ذلك على ابننا عندما يكبر؟...

بلا كلمة واحدة حملت الطفل وخرجت من الفيلا وسرت به فى الحديقة إلى أن وصلت لغرفة عم عبده، كانت حسنية نائمة، طلبت منه أن يوقظها وأن يعطيها الطفل لترضعه، جلست فى الحديقة إلى أن انتهت من إرضاعه .. قالت لى: كان جائعاً جداً يا كبدى.

فى تلك الليلة نام طفلى نوماً هادئاً وقد علت وجهه علامات الارتياح الناتجة عن الشبع.

منذ تلك اللحظة ارتبط طفلى بحسنية، وأخذت أنا أهتم بتغذية حسنية وعم عبده بالطبع .. أخذت أرسل لهما بكميات هائلة من اللحوم والدواجن والسمك والبيض والجبن والفاكهة، ولكنى لاحظت أن هذه الكميات كانت تنتهى بسرعة غير مناسبة، كما أن حسنية كانت تعطى الجزء الأكبر لزوجها الذى كان قادراً على أكل جمل بأكمله فى وجبة واحدة... لم يكف عم عبده بذلك، بل أخذ يدعو بعض أصدقائه وأقاربه لولائم ليبريهم كم هو كريم وكيف أن غرفته الصغيرة حافلة بكل تلك الخيرات.

لم يكن هناك مفر من أن أستدعى حسنية لتتناول طعام الإفطار والغداء والعشاء معنا.. أو معنى بمعنى أدق لأن زوجتى لم تكن تشاركنا الطعام.. فعلت ذلك لكى أتأكد أن المحصلة النهائية لتلك الحملات الغذائية ستتحول لحليب يغذى ابنى ويبعث القوة فى أوصاله.

كانت حسنية تتناول الطعام بشهية بالغة وبطريقة تشعر ك أن الدنيا بخير وأن الحياة جميلة. ومع ذلك لم يكن وزنها يزداد أو يصاب جسمها بالترهل ، كانت رشيقة وقوية بفعل ذلك المجهود الذى تبذله فى العناية بالحديقة والفيللا.

انكشف عم عبد أمام أصدقائه وأقاربه الذين كانوا يهبطون عليه فى موعد العشاء فلا يقدم لهم شيئاً مما اعتادوه من قبل. فاستاء من مشاوير زوجته الغذائية وأخذ يبرطم بكلام غير مفهوم.. لست أعرف بالضبط ماذا صور له خياله.

أما زوجتى، فقد كان الاستياء واضحاً عليها وذلك من الغلظة التى كانت تعامل بها حسنية. وذات ليلة خرجت زوجتى من غرفتها فوجدتنا نتناول عشاءنا معاً فانفجرت فينا.. ألا تخجل من نفسك يا رجل ؟ .. ما هذا الذى تفعله ؟ .. ذوقى يا حسنية قطعة اللحم هذه أسمها «اسكلوب» يا حسنية .. أما تلك فهى بفتيك .. جريبها .. الله طعمة .. أليس كذلك ؟ .. نعم .. تسلم أيدك يا سيدى .. بالهنا والشفاء يا حسنية .. الله يهديك يا سيدى .. أستحلفك بالله أن تأكلى هذه السمكة يا حسنية .. شبعت يا

سيدى.. أرجوكى.. كلى هذا الفص.. عشان خاطرى.. هل أقشر لك
تفاحة أخرى.

جاء عم عبده على صرخات زوجتى، وبدأت الجيران تتابع ما
يحدث من البلكونات والشبابيك.. انهالت بالشتائم والإهانات على عم
عبده مذكرة آياه بأن الرجولة لا تتفق والسماح لزوجته بأن تأكل بعيداً
عنه.

فسحب زوجته إلى غرفته وبعد لحظات ارتفع صراخها، كان
يضر بها، أنقذتها بصعوبة من بين يديه، فالقى عليها يمين الطلاق.
كلاهما ترك الفيلا..

ذهبت زوجتى إلى بيت أهلها، وذهب عم عبده إلى حيث ألفت.
ويكت حسنية فى حرقه وتعاسة وضياح. فكدت أصاب بالجنون. هذا
الحزن وتلك التعاسة سيتحولان لسم قاتل زعاف يدخل جوف طفلى. لا
يجب أن تتعرض المرضعة لانفعالات سيئة، ولذلك أخذت أطفها
وأهدئها.. ثم نزلت إلى السوق واشترت لها ملابس جديدة وتركت لها
الفيلا وأقمت عند الدتى.

كنت آتى للفيلا ساعتين فقط يومياً، الأطف طفلى الذى بدا ينمو
بشكل يدعو للإعجاب. خلال خمسة شهور، أكتشفت أن حسنية مخلوق
جاد، وظريفة وذكية وبنّت حلال، وتحب طفلى وتعامله كطفلها،

المعاملة الطيبة والمناخ المريح اكسبتها جمالاً واكسبت عينيها بريقاً
محبباً.

الشئ الغريب أننى بدأت أحب طفلها كطفلى .. أكثر من ذلك لقد
بدأت أحب عملى أكثر بل وأحب الحياة أكثر وأكثر بعد أن تزوجت
حسنية.

شئ أخير أقوله لكم لى تغتاضوا جميعاً ويفرى الحقد أكبادكم ..
حسنية أننى أيضاً. ربنا يخليكى لى يا حسنية.

مهمة الزوجة

الشغالون يقومون بتنظيف البيت وترتيبه وشراء ما يلزم من السوق، السائق يقوم بتوصيل الأولاد من وإلى المدرسة، الطاهي يقوم باختيار أنواع الطعام الذي نأكله، المدرسون يأتون إلى المنزل واحداً بعد الآخر لإعطاء الأولاد الدروس الخصوصية، وأنا أدور في طاحونة العمل مثل الثور.

ماذا تفعل هي إذن؟

أقول لك:

تذهب إلى النادي ثم تعود من النادي.

تذهب لزيارة صديقاتها ثم تعود بعد انتهاء زياراتها لصديقاتها. لا تحملهما من أى نوع. دائماً متوردة تكاد الصحة تتفجر من عينيها ومن لون بشرتها بينما أتحول أنا شيئاً فشيئاً لكهل عجوز. فى إحدى

المرات سألتها فى ثورة غضب . هل من الممكن أن أفهم ما هى مهمتك بالضبط ؟

ردت على ببرود يثير الاعصاب : أن أكون زوجتك .

– أعلم أنك زوجتى .. ولكن ماذا يعنى ذلك ؟

ازدادت شحنة البرودة فى صوتها وهى تقول : يعنى أن أكون زوجة لك .. وهو معنى كبير أفهمه جيداً .

– ولكنى أريد أن أفهمه أنا أيضاً .

– كنت أعتقد أنك تفهمه .

– لا يا سيدتى ، لست أفهمه .

انتهت الخناقة على خير ، كما تنتهى عادة كل خناقات الأزواج والزوجات .. حدث بعد ذلك أن جاء ذلك اليوم الأسود المشعوم الذى أدمنت فيه «الشم» . كنت أقضى السهرة مع رجال الأعمال الذين تعرفت عليهم حديثاً ، قال لى أحدهم إننى لست فى حالة مزاجية عالية ، ثم عرض على أن أجرب شعة من ذلك المسحوق الأبيض اللعين . قال إننى سأكتشف مناطق ممتعة من الحياة لم أعرفها من قبل . عندما حدثته عن أخطاره وأضراره ، ضحك باستخفاف وقال : هل تصدق كلام الجرائد ؟ كل ما هو نبات لا خطر منه بالمرة ، إننى أتناول هذا للمسحوق عندما أريد وأتوقف عنه عندما أريد ، ولا تحدث لى تلك

المضاعفات والآلام التي يحكون عنها .. وعلى العموم جرب .. جرب ولو مرة واحدة .

وجربت، ولكنها لم تكن لمرة واحدة، فقد أعقبتها عدة مرات .. ثم عشرات المرات ..

دخلت دائرة الإدمان بأسرع مما أتصور. كان من المستحيل أن أستمِر في عملي أو حتى أتمالك قواي إلا بعد الحصول على الشمة .

استهلكت كل مدخراتي، ثم اضطررت بعد ذلك لبيع أصول شركتي، ولكني كنت حريصاً دائماً على ألا تشعر زوجتي بشئ ما يحدث لي . غير أنها بدأت تتنبه إلى أن هناك أمراً غير عادي يجري في حياتي عندما لاحظت التباين الشديد في حالاتي النفسية والعصبية، فأحياناً أكون سوداوي المزاج، غير قادر على الحركة، وفي أحيان أخرى أكون متمالكا لقواي وفي حالة مزاجية متألقة، الأمر الذي لا يحدث إلا بعد حصولي على «الشمة» التي مالبثت أن أصبحت عدة «شمات» في اليوم الواحد .

لو أن «قارون» نفسه أذمن الشم لفقد كل أمواله في شهور، هذا ما حدث معي، فقدت كل شئ .. حتى الفيللا التي تسكنها . بعته بكل ما نحوى من أثاث . كانت زوجتي في منزل أهلها ومعها الأولاد بعد أن أفتعلت معها خناقة طردتها على إثرها هي والأولاد، وخرجت هي في كبرياء دون أن تتفوه بحرف واحد .

بعد عشرة أيام من انتقالى إلى الغرفة التى استأجرتها فوق سطح إحدى العمارات، فوجئت بها تطرق على الباب، عندما شاهدتها، انفجرت باكيا، لم أكن اعتقد أننى سأراها للأبد، كنت خجلاً منها.

جاست هى صامئة إلى إن تماكنت نفسى وأخيراً تكلمت: أنت لم تطلقنى بعد، وأنا لم آت لأطلب الطلاق.. فأنت فى محنة وأنا أدرك ذلك.. لقد جئت لكى أسألك بوصفى زوجتك، هل هناك ما أستطيع أن أفعله من أجلك؟

لم أرد عليها، وظللت صامتاً، فقد بحثت عن إجابة فلم أجد. كانت راقية إلى الحد الذى سحقتنى سحفاً.

مرة أخرى جاءنى صوتها، إننى أستطيع أن أفعل الكثير من أجلك بشرط أن توافق وأن تتحمس لما سأعرضه عليك، أنت الآن وصلت إلى نقطة الصفر، بل إلى ما دون ذلك، ولكنك تستطيع الصعود مرة أخرى. من خلال دموى تساءلت فى تعاسة: كيف؟ .. كيف؟ .. لا أمل، لا أستطيع الابتعاد عن هذا المسحوق. جريت مرة أن أمتنع عن الشم، أحسست بآلام، الموت أرحم منها ووجدتلى أجرى فى الشارع كالمجنون باحثاً عن جرعة.

- ولكنك تريد بالفعل الإقلاع عن ذلك؟

- نعم أريد .. أقسم أننى أريد ..

- هل تسمح لى أن أمتنع بكل الطرق.

- نعم، أسمح لك .. بل أرجوك .. أتوسل إليك .. أمتنعنى بكل الطرق.

- حسناً، دغ الباقي لى.

غابت ساعة ثم عادت ومعها حقيبة ملابسها وكمية من اللحم والخضراوات والعصائر.

سألتنى برقة: ماذا سيحدث عندما يأتى موعد الجرعة؟

- أتحول لمجنون، ثور هائج، قد أحطم كل ما ومن يقف فى طريقى.

ضحكت وقالت: سوف أمنعك أنا..

قلت لها فى إشفاق: أن المدمن فى مثل تلك الأحوال على استعدادا لتحطيم الجدران.

قالت: ولكنى لست جدراناً. أنا أقوى منها.

مرت الساعات حتى جاء موعد الجرعة، بدأت الآلام تنخر فى عظامى قلت لها: لا فائدة، لقد بدأت موجة الآلام، لا يمكن الإقلاع عن الإدمان إلا بالعلاج داخل مصح.. بعد إذنك، سوف أخرج الآن.

قالت بصرامة: لن تخرج، إذا استطعت التغلب على موجة الآلام، فسوف تنجح.

لم أعبأ بما قالته، سرت فى اتجاه الباب، سبقتنى إليه أغلقته بالمفتاح من الداخل ثم ألقى بالمفتاح من النافذة، قررت أن أحطم قفل الباب لكى أخرج. أمسكت بى من أصابعى ولوثها إلى الخلف بعنف ففوجئت بنفسى ملقى على الأرض. قمت من مكانى وقد ركبت الشياطين

رأسي، وجهت لها لكمة هائلة، تفادتها برشاقة ثم ضربتني بحد كفها
على عنقي ضربة صاعقة فأوقعتني على الأرض مرة أخرى.
قمت وأنا أترنح وهجمت عليها، قفزت من على الأرض وبسرعة
خاطفة عالجتنى برفسه من قدمها في صدري شعرت بعدها أن رئتي
تمزقت.

واستمرت المعركة بيننا، أخذت أقذفها بكل ما تصل إليه يدي،
حاولت أن أصل إليها، أه لو وصلت إليها، إذن لمزقتها إرباً، ولكنها كانت
تتحرك بخفة الفهد ثم تكيل لي ضربات سريعة بحد كفها وبقدميها، لقد
أثمرت أخيراً فترة تدريبها في الناذي على الجودو والكاراتيه.

خارت قواي، لم أعد أرى شيئاً أمامي، أفاقنتني بكوب من عصير
البرتقال. عندما خطوت مرة أخرى تجاه الباب منعنتني بضرباتهما
المعجزة. وفي النهاية انهرت على الأرض عاجزاً عن الحركة.

زحفت على الأرض أقبل قدميها: أرجوك.. اسمحي لي هذه المرة
فقط.. ساموت.. المذمن يموت إذا لم يحصل على الجرعة.

قالت ببرود: وهل تعتقد أنك حي.. أنت ميت فعلاً.. لقد قررت أن
أعيدك إلى الحياة.. أو أوصلك إلى المقبرة.. مت الآن مطمئناً، لقد
اتفقت مع الخانوتي قبل أن آتي إليك.

آلام لا تحتمل، وقي وإسهال ثم توسلات وصراخ ودموع، ولكنها
كانت مثل الصخرة الصماء، لا قلب لها ولا مشاعر.. انتابتني رعشة

وحمى شديدة استمرت خمسة أيام تصورت خلالها أننى قد انتقلت
للجحيم .. عندما أفقت، كنت قد نخلصت من الإدمان. ومن جديد بدأت
رحلة الصعود.

ذات مساء قالت لى زوجتى: هل وجدت الآن الإجابة لسؤالك
القديم .. عن مهمة الزوجة؟

أجبتها: نعم .. هناك آثار فى جسمى لن تنمحى، ستذكرنى للأبد
بما فعلته من أجلى.

المكواه

هل تصدقون أن رجلاً على وجه الأرض، يكره كل إنجازات العلم المعاصرة من مخترعات حديثة تسهل على البشر كل أمور الحياة؟ أنا هو ذلك الرجل.

نعم، فأنا أكره كل المخترعات الحديثة التي اخترعت من أجل راحة الإنسان، بل وأحلم بالعودة لتلك الأيام الجميلة التي كان الإنسان الأول ينام فيها آمناً في كهفه المريح في أعماق الغابة. لا يزعجه أزيز أجهزة التكييف، ولا يتبهدل عند الميكانيكي ولا يتعرض لعمليات القرصنة المنظمة التي يشنها عليه عمال صيانة الغسالات والثلاجات والفيديو والتلفزيون.

لقد ظهرت في الأسواق مكواة صغيرة، أحدث إنتاج للتكنولوجيا المعاصرة، لا داعي لأن تنتثر ذرات الماء على الملابس تمهيداً لكيها،

فهذه المكواة مزودة بخزان داخلى تضع فيه الماء، عند ذلك يسخن بفعل الكهرباء إلى درجة الغليان، وعند ذلك يتولى عقل اليكترونى صغير دفعه إلى الخارج من خلال فتحات صغيرة متناثرة على سطح المكواة.

كان الإعلان عن المكواة فى التليفزيون يكاد يذهل العقول، فقد كانت تخرج منها سحابة من البخار تعانق الملابس وقد أمسكت بها يد مكوجية، حسناء ذات ابتسامة لا تقاوم.

اشترينا المكواة. ولأن كل اختراع جديد يوجد معه كتيب بكل اللغات الحية والميتة يشرح لك طريقة الاستخدام ويحذرك من مغبة سوء الاستعمال، لذلك فقد أخذت زوجتى تقرأ بإمعان هذا الكتيب.

اكتشفت أنه مرفق به ورقة معالجة كيميائياً تشبه ورقة عباد الشمس التى كنا نميز بها الحامض من القلوى فى حصص الكيمياء فى مرحلة الدراسة الثانوية.

اتضح أن هذه المكواة الفاضلة لا تتحمل أى نوع من أنواع المياه. وأن زيادة نسبة الشوائب والأملاح فى الماء، تفسد أجزاءها الدقيقة للمرفهة. وأنه لا بد - ضماناً لسلامة الاستعمال - من الكشف على المياه بواسطة هذه الورقة المرفقة.

كشفت زوجتى على مياه الصنبور التى نشرب منها، والتى يشرب منها أجدادنا منذ آلاف السنين، فاكتشفت أن نسبة الملوحة والشوائب العالقة بها، كبيرة بحيث لا تصلح لأن تتغذى بها المكواة.

أجسامنا المسكينة تتحمل هذه المياه بكل شوائبها بينما هذه المكواة الأرسقراطية، ابنة تكنولوجيا الغرب المهذبة، لا تتحملها، بل قد تصيب بالتلف أجزاءها الدقيقة المدللة.

- والحل ؟.. هل اشترى لها مياهها مقطرة من الاجزاخانه ؟ .. بحيث يكلفنى كى القميص مبلغاً يعادل ثمن القميص نفسه ؟ .. أم أسقيها مياهاً معدنية بينما أشرب أنا من النيل مباشرة ؟.

- لا .. نشتري (فلتر) لتنقية المياه، يوضع على الصنبور ..

واشتريت (الفلتر)، وركبته على الصنبور، وشريت المكواة هنيئاً مريئاً، وانبسطت وبدأت تكوى، وبدأ أفراد الأسرة أيضاً يشربون مياهاً نقية لا طعم لها وكأنها الهواء.

بعد مرور عدة أيام حدث شئ غريب، بدأنا جميعاً نشكو من آلام وتقلصات فى المعدة مجهولة السبب والمصدر .. قرر طبيب الأسرة بعد كل التحليلات التى أجريت فى أحدث المعامل الطبية وبعد الحصول على صور أشعة متعددة، استخدمت فيها أشعة الليزر والمحاليل الذرية الملونة، قرر الطبيب أن المسئول عن هذه الآلام هو تغيير نوعية مياه الشرب التى تعودت عليها أجسامنا لسنوات طويلة.

لا بد من نسبة معينة من الأجسام الغريبة، والشوائب. عندما تدخل المعدة، يستخدم الجسم كل قواه لمقاومتها، وفى غياب هذه الأجسام

(الضارة) ، يفقد الجسم الرغبة فى المقاومة ويصبح ضعيفاً، فلا يتحمل مقاومة أضعف الميكروبات وأقلها شأنًا.

عدنا للشرب من مياه الصنبور العادية، فاخففت الآلام على الفور. وخصصنا الفلتر، لتنقية المياه الخاصة بالمكواة فقط.

أصيب الفلتر بعطب، لم يتحمل المسكين كمية العمل المفروضة عليه. فقد كانت كمية الشوائب والطحالب أكبر من أن تتحملها أجزاؤه الدقيقة.

فككته وذهبت إلى توكيل الشركة الخاصة به، نظر المهندس الألماني إلى أجزائه ثم قال باستنكار شديد: ماذا فعلتم به؟ هل تستخدمونه فى تنقية شورية العدى؟ .. لم يحدث من قبل أن كسرت هذه الأجزاء الداخلية .. أنتم فى حاجة لمحطة تحلية مياه تعمل بالطاقة الذرية .. على كل حال سوف أطلب لك قطع الغيار المطلوبة من المصنع، على أن تتحمل مصاريف المراسلات بالتركس.

ارتفع سعر الدولار إلى الضعف مما ترتب عليه أن قطعة الغيار المطلوبة كلفتنى ضعف ثمن الفلتر نفسه. ولكن للأسف، بعد أن ركبنا قطع الغيار المطلوبة، توقف الفلتر بعد أسبوعين.

— ماذا نفعل؟

عدنا لقراءة الكتيب مرة أخرى، اتضح أن هناك حلا يشبه الحلول الدبلوماسية، لا غالب ولا مغلوب.

من الممكن أن تعمل المكواة مثل بقية مكاوى البشر التقليدية، بدون مياه تخرج من جوفها، يعنى ترش المياه على الملابس من إناء منفصل ثم تستخدمها بشكل تقليدى.

ولكن .. ولكن ما فائدة الثقوب والتكنولوجيا المعاصرة إذن؟ .. اليس فيما نفعله إنكار وأهدار لجهد العبقرى الذى اخترع المكواة؟ أليس فيما نفعله تجاهل شرير لإنجازات العلم؟

هذا ما كانت تلح على به زوجتى كل يوم، ثم أخذت تحثنى أن أفعل شيئاً ولا أستسلم للهزيمة بسهولة. لابد من الحصول على مياه نقية تصلح للمكواة.

لذلك قررت أن أخوض معركتى على كل المستويات. أتصلت بكل من أعرفهم فى مستويات السلطة المتعددة، أتصلت بمسئول مرفق المياه، كلمت قادة الأحزاب المعارضة، أرسلت خطاباً لكل أبواب بريد القراء فى كل الصحف والمجلات .. بالطبع لم أذكر لهم حكاية المكواة. ومازلت أواصل معركتى.

فلست منعدم الضمير إلى الدرجة التى أترك فيها هذه المكواة الأنيقة تموت عطشاً.

زوجتى والشعر

أعمل وكيلا أول فى وزارة هامة فى عاصمة عربية هامة أيضاً. ولكن ما اعتز به حقاً، هو أننى شاعر، بل وأزعم أننى شاعر فحل مجيد بالرغم من أن ديوانى الأخير الذى يحوى أرق وأجمل قصائدى، قد وزع عشرين نسخة فقط.

نعم، عشرون قارئاً فقط من المحيط إلى الخليج هم الذين اشتروا ديوانى، مع إنى أرسلت عشرات النسخ من هذا الديوان إلى كل نقاد الأدب والمهتمين بالشعر، وكل مسئولى الصفحات الأدبية فى الجرائد والمجلات إلا أن الجميع قد التزموا الصمت.

شعرت بحزن عميق أسلمنى لحالة من الاكتئاب فبت أرى كل ما حولى أسود قائماً. زوجتى أيضاً استولت عليها حالة من التكد، مالبثت أن تحولت لانفجار. فجأة دخلت على غرفة مكتبى بينما أنا جالس غارق فى أحزانى. صاحت فى وجهى: أنت المخطئ فيما حدث، ليس

مهما أن تكون فناناً مبدعاً، الأكثر أهمية أن تكون لديك القدرة على تسويق إبداعك.. الإبداع أيضاً يعتبر سلعة.. مثله مثل الموبيليا، والأحذية، والسيارات، والثلاجات.

صرخت فيها: ماذا تريد منى؟ أن أحمل ديوانى على كتفى وأمشى به فى الشوارع.. وأناذى عليه وأقول. الشعر الحلو.. الشعر الجميل.. الشعر العظيم، أفهمينى، أنا شاعر فنان مبدع ولست بقالا ألم تقرئى الدراسة التى كتبها عنى المستشرق الأسباني، خابيتى.. خابيتى؟ سككت. ثم خرجت من الغرفة غاضبة.

المشكلة أن دراستها كانت فى إدارة الأعمال. وحصلت على الماجستير فى التسويق، لذلك فهى تؤمن أن أهم عنصر فى الإنتاج البشرى هو: التسويق. وهذا صحيح إلى أبعد الحدود فيما يتعلق بالسلع الاستهلاكية والمعمرة أو أى نشاط تجارى. ولكن الفن؟ الشعر؟ لا يمكن. على الشاعر أن يبدع ثم يقدم إنتاجه فى ترفع. عليه ألا يستجدى أحداً لترويج إبداعه. قبل الفجر بقليل خرجت من غرفة مكتبى فوجدتها ساهرة فى غرفة الصالون منهمكة فى الكتابة وقد أحمرت عيناها من السهر.

- سألتها، ماذا تكتبين؟

- اكتب عدة قصائد شعرية، انتهيت من كتابة عشر قصائد، أمل أن أتمكن من الانتهاء من ديوانى الأول قبل شروق الشمس.

لم أعرف من قبل أن لها أهتمامات شعرية، ولذلك طلبت منها أن
تقرأ لى بعض الأبيات فبدأت تقرأ.. غسلت فؤادى، وغسلت قلبى.

وسأنتظر حتى يجف..

لكى أحبك من جديد.

قلدى من الحب المزيد.

ستجدى بانتظارك، بقلب غسلته الأحزان.

وأعين غسلتها الدموع.

يا أفسى من صخرة.. وأعتى من إنسان.

اكتفيت بهذا القدر من عبث الأطفال الشعرى وقلت لها تصبحين
على خير، ونمت حزناً، فقد ظهر للوجود شاعر آخر ليس له صلة
بالشعر، يالوجع قلبى.

بعدها بيومين، طلبت منى ألا ارتبط بمواعيد يوم الخميس، حيث
ستزورنا بعض الشخصيات الهامة لتناول العشاء عندنا، وأصرت على
ألا تكشف لى عن شخصياتهم وأسمائهم باعتبار أنها تدخر لى مفاجأة.

كانت المفاجأة أكثر من مذهلة، فوجئت بعشرة نقاد على الأقل
 وخمسة من محررى الأبواب الأدبية والفنية وقد أتوا لتناول العشاء على
مائدتنا، التى كانت طوال عمرها متواضعة.. ولكنها الليلة لم تكن
كذلك. فقد رصت عليها مجموعة من صوانى وطواجن السمك
والجمبرى وقواقع البحر، من ذلك النوع الذى لا تراه إلا وأنت تشاهد

برنامج عالم البحار فى التلفزيون.. بالإضافة لأطباق الأرز المرصعة بالاستاكوزا والكابوريا المخلية. ثم أنواع غريبة من السلطات والمخللات والمقليات. فوجئت أيضاً بوجود أربعة سفرجية يرتدون زياً أخضر مزركشاً وقد ركبت على وجوههم ابتسامة ترحيب أسرة. يقومون بخدمة الضيوف فى لطف ورقة بينما زوجتى توجههم فى ألفة وكأنهم يعملون لدينا منذ عشرين عاماً.

انتهى العشاء، وبدأت طوابير الفاكهة ثم استعراض أطباق الحلو. ثم انتقلنا لغرفة الصالون. فجاء دور السيجار الفاخر والقهوة «المحوجة».. ثم رائحة بخور جميلة آتية من مكان ما، ثم موسيقى هادئة جميلة. كانت الجلسة أشبه بجلسات تحضير الأرواح.

وفى لحظة مناسبة، وبعد أن تأكدت زوجتى أن أبخرة السمك والجمبرى قد تصاعدت من بطون الجميع إلى أدمغتهم فخدرتها، بدأت تلقى بقصائدها.

اتضح أنها تكتب الشعر منذ نعومة أظفارها، وأنها قررت الآن فقط أن تخرج للنور. وبدأت التعليقات وصيحات الاستحسان، الله... الله... عيذى البيت الأخير... يا سلام.. حرام عليك حبس هذه الموهبة طوال هذه السنين.. الله.. ماشاء الله.. من يصدق أن هذه الموهبة كانت موجودة بيننا ونحن لا ندري.

المؤلم أنه ولا واحد فيهم كان قد سمع بأسمى من قبل، ما عدا واحدا .
تذكر أنني قد أرسلت له ديوانى الذى لم يقرأه، قال لى منجأماً وهو
يضحك: طبعاً.. زوجة الوز عوام .

لم أضحك لنكتته السخيفة، فالأصل فى المثل هو ابن الوز عوام،
وليس زوجة الوز، بالإضافة إلى إننى لا أرى وجه تشابه بين الوز
والشعر.

سألتها بعد أن انصرف الجميع: كم كلفتك هذه التمثيلية التى اعترف
أنها كانت متقنة؟

قالت: حوالى ألف جنيه... ولكنك سترى مفعولها ومردودها
حالاً... كل ناقد من هؤلاء يكره خمسة شعراء على الأقل، وهو فى
حاجة لظهور شاعر جديد، عند ذلك يجد الفرصة لاغاضتهم بأن
يمدحه.. أننى أريد فقط أن أعطيك درساً عملياً فى أهمية علم التسويق .

قلت لها: ولكن يا زوجتى الحبيبة، ما تقولينه ليس شعراً.

فردت بدون استياء: أعرف ذلك، وهم أيضاً يعرفون، ولهذا السبب
وحده، سيلمعوننى ويقدموننى للقراء، سيشنون حملة كبيرة من أجل
تنصيبى شاعرة كبيرة، سيقولون بإلحاح هذا شعر عظيم وهذه شاعرة
كبيرة. عند ذلك سيصدقهم الناس. الناقد متوسط القيمة يجب غير
الموهوبين، لأنه لا يخشاهم، ويشعر فى وجودهم بأنه جبل، بينما المبدع
الحقيقى يشعره بأنه مجرد حجر صغير ملقى فى شارع الفن. لا يحب

المبدع العظيم سوى الناقد العظيم هؤلاء قلة لا أهمية لها على المستوى
العملي... وهذه النظرية أيضاً يعرفها علم التسويق حيث القاعدة
الأساسية هي، حسن السوق ولا حسن البضاعة، ليس مهما جودة
البضاعة، المهم هو جودة السوق.. نشاطه.. فاعليته.

وظهر ديوان زوجتي الأول في السوق، وأصبحت أراها نادراً، ففي
كل ليلة، هي تلقى بقصائدها في احتفال ما، أو ندوة ما، داخل البلاد أو
خارجها. وعندما لا تكون هناك ندوات ينشغل البيت في المساء بجلسات
التنويم المغناطيسي، أقصد دعوات العشاء، لدرجة أن السفرجية الأربعة
أصبحوا يقيمون في البيت شبه إقامة دائمة.

ذات ليلة، قالت لي بصوت مجهود وملامح مرهقة: أنا متعبة، أريد
أن أنام، ومطلوب مني غداً أن ألقى قصيدة جديدة، وليس لدى وقت
لكتابتها، هل أطمع أن (تقرضني) قصيدة من قصائدك غير المنشورة.

أعطيتها القصيدة، ومنذ تلك اللحظة أصبحت (تقرض) مني
قصائدي. لا بأس، إن قرض الشعر واقتراضه أمر واحد تقريباً.

لقد وزع ديوانها الثاني الذي اقترضت مني كل قصائده عشرات
الآلاف. وهذا أمر يسعدني بالفعل، ليس من المهم أن تظهر أشعاري
باسمى، المهم أن تصل للقارئ. أمر وحيد أحزنني اليوم، كتب أحد
النقاد عنها يقول: وهي متزوجة من مسئول كبير يكتب الشعر أيضاً.

أيضاً.... ؟

هل جاء الوقت الذى يقال على إننى «أيضاً» أكتب الشعر؟
لقد تعلمت وتفهممت ووعيت وأدركت وعرفت الدرس جيداً يا
زوجتى العزيزة، وكم هو قاس، كم هو قاس.

المحتويات

صفحة	
٧	مقدمة
٩	زوجتى والبطاطس
١٥	كذبة بيضاء
٢٣	استعدت رجولتى
٢٩	زوجتى محظوظة
٣٣	سهرة على مشارف الغابة
٣٧	زوجتى ليست مسئولة
٤١	شاب فى الستين
٤٥	مشعلة الحرائق
٥١	صيغة الاستفهام

٥٩	كمونيات
٦٣	أنا مسرف
٦٩	كل هذا الحب
٧٥	هي والخابب حسن
٨١	أبنتى تريد أن تعرف
٨٥	سر الابتسامة الساحرة
٩١	زوجتى هي الحكومة
٩٧	هي فى غرفة الصالون
١٠٢	زوجتى.. وآلام البشر
١٠٩	الاعتراف الرهيب
١١٣	واستعذت زوجتى
١١٩	زوجتى مفتش مباحث
١٢٣	لا تصلح للمحاماة
١٢٩	الغطاء
١٣٥	نهاية أحلام السيطرة
١٣٩	زوجتى والذهب
١٤٥	مرض العنن إلى الوطن
١٥١	حسنية
١٥٧	مهمة الزوجة
١٦٥	المكواة
١٧١	زوجتى والشعر

مطابع الهيئة الوطنية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٧٦٩ / ٩٩

I.S.B.N 977 -01-6416-X

